﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف: 15]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

برُّ الوالدين ثاني مراتبِ الطّاعةِ وعُمدةُ طريقِ الاستقامةِ

لَمّا ذَكَرَ تعالى في الآيَةِ السّابقةِ قَولَهُ: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف: 14]، قالَ هاهُنا: ﴿وَوَصَّيْنَا﴾؛ إذ كانَ برُّ الوالِدَينِ ثانيًا أفضَلَ الأعمالِ[1]، فَقَرَنَ بالوَصِيَّةِ بطاعَتِهِ الوَصِيَّةَ بالوالِدَينِ؛ لِكَونِهِ تَعالى جَعَلَهُما سَبَبَ الإيجادِ، فَقالَ في هَذا السِّياقِ الَّذي عَدَّ فيهِ الأعمالَ - لِكونِهِ سِياقَ الإحسانِ - الَّتي أفْضَلُها الصَّلاةُ عَلى ميقاتِها، وثانيها في الرُّتْبَةِ برُّ الوالِدَينِ[2]، فَجاءت عقبَ ذِكرِ أصحابِ الجَنَّةِ؛ لأنَّ أقربَ الخَلْقِ إلى أبوابِ الجنَّةِ هُم أهلُ البِرِّ بالوالدينِ، كَما أنَّ أقربَ أهلِ النّارِ إلى النّارِ العاقّونَ للوالِدَينِ، وأسوأُ الأعمالِ بَعدَ الشِّركِ باللّهِ هو عُقوقُ الوالدينِ[3].

وذهبَ بَعضُهُم إلى أنَّ هَذا الانتِقالَ في الآيَةِ انتقالٌ إلى قَولٍ آخَرَ مِن أقوالِ المُشْرِكينَ، وهو كَلامُهم في إنكارِ البَعثِ وجدالِهم فيه، فَإنَّ ذَلِكَ مِن أُصولِ كُفْرِهم بِمَحَلِّ القَصْدِ، وصِيغَ في أُسلوبِ قِصَّةِ جِدالٍ بَينَ والِدَينِ مُؤمِنَينِ وولَدٍ كافِرٍ، وقِصَّةِ جِدالٍ بَينَ ولَدٍ مُؤمِنٍ ووالِدَينِ كافِرَينِ؛ لأنَّ لِذَلِكَ الأُسلوبِ وقعًا في أنفُسِ السّامِعينَ، ولِذَلِكَ تَعَيَّنَ أن يَكونَ ما قَبْلَهُ تَوْطِئَةً وتَمْهيدًا لِذِكْرِ هَذا الجِدالِ[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 439.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 144.
(3) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 408.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 28.

والجَمْعُ بين هذينِ التَّوجيهين مُتَّجهٌ، فإنَّ التَّوجيهَ الأوَّل مناسبٌ لقُربِ الآيةِ السّابقة للّاحِقةِ، والآخَر مناسبٌ للموضوعِ والاتِّساقِ بين المعاني الكلّيَّةِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كُرْهًا﴾: (كره) أصلٌ صَحِيحٌ واحِدٌ، يَدُلُّ على خِلافِ الرِّضا والمَحَبَّةِ، يُقالُ: كَرِهْتُ الشَّيءَ أكرَهُهُ كَرْهًا، والكُرْهُ الاسمُ[1]، ويُقالُ: بَلِ الكُرْهُ: المَشَقَّةُ، والكَرْهُ: أن تُكَلَّفَ الشَّيءَ، فَتَعمَلَهُ كارِهًا، يُقالُ: فَعَلْتُهُ على كُرْهٍ، وفعلتُه كُرْهًا، وإذا ضمّوا، وخفَّفوا؛ قالوا: كُرْه، وإذا فتحوا؛ قالوا: كَرْه، والكَرْه: المكروهُ[2]، وقالوا: لا فَرقَ ما بَين الضَّمِّ والفتحِ في العَرَبيَّة ولا في سُنَّةٍ تُتَّبَعُ، إلّا الفرّاء، فإنَّهُ زعم أنَّ الكُرْه ما أكرهتَ نفسَك عَلَيه، والكَره ما أكرهكَ غيرُكَ عَلَيه[3]، وقيلَ: الكَرْهُ: المشقَّةُ الَّتي تنالُ الإنسانَ من خارجٍ فيما يُحْمَلُ عليه بإكْراهٍ، والكُرْهُ: ما ينالُه من ذاته، وهو يَعافُه، وذَلكَ على ضَربين، أحدُهُما: ما يُعافُ من حيثُ الطَّبعُ، والثّاني: ما يُعافُ من حيثُ العقلُ أو الشَّرعُ، ولهذا يصحُّ أن يقولَ الإنسانُ في الشَّيءِ الواحدِ: إنّي أُريدُه، وأكْرَهُهُ، بمعنى أنّي أريدُه من حيثُ الطَّبعُ، وأكْرَهُهُ من حيثُ العقلُ أو الشَّرعُ، أو أريدُه من حيثُ العقلُ أو الشَّرعُ، وأكْرَهُهُ من حيثُ الطَّبعُ[4]، والمُرادُ بـ﴿كُرْهًا﴾ هاهُنا: المَشَقَّةُ، ولَيْسَ الكُرْهُ في أوَّلِ عُلوقِ الأمِّ بَحَمْلِها، بَل بَعدَ ذَلكَ حِينَ تَجِدُ لَهُ ثِقلًا[5].

2) ﴿وَوَضَعَتْهُ﴾: (وضع) أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلى الخَفْضِ لِلشَّيءِ وحَطِّه، ووَضَعْتُهُ بِالأرْضِ وضْعًا، ووَضَعَتِ المَرْأةُ ولَدَها[6]، ووَضعَ عَنهُ الدَّينَ والدَّمَ وجَميعَ أنواعِ الجِنايةِ يَضَعُه وضْعًا: أسقَطَه عَنهُ[7]، والوَضْعُ أعمُّ من الحطِّ، ومنه: المَوْضِعُ، ويُقالُ ذَلِكَ في الحَمْلِ والحِمْلِ، ويُقالُ: وضَعَت الحملَ، فهو مَوْضوعٌ[8]، والمَعْنَى المِحوريُّ: الهويُّ بالشَّيءِ إلى مقرٍّ مُنخفضٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كره).
(2) الخليل بن أحمد، العين: (كره).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (كره).
(4) الرّاغب، مفردات القرآن: (كره).
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 175.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وضع).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (وضع).
(8) الرّاغب، مفردات القرآن، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (وضع).

يَثْبُتُ فيه عن حيِّزٍ عالٍ كانَ فِيه[1]، والمُرادُ بِـ﴿وَوَضَعَتْهُ﴾ هاهُنا: وضَعَتِ المرأةُ وضْعًا - بالفتح - أي: ولَدَتْ[2].

3) ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾: (فصل) كَلِمَةٌ صَحِيحَةٌ تَدُلُّ عَلى تَمْيِيزِ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ وإبانَتِهِ عَنهُ، يُقالُ: فَصَلْتُ الشَّيءَ فَصْلًا[3]، والفِصالُ: الفِطامُ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾، المَعْنَى: ومَدى حَمْلِ المرأة إلى مُنْتَهَى الوَقْتِ الَّذي يُفْصَل فِيهِ الوَلَدُ عَن رَضاعها ثَلاثونَ شَهْرًا، وفَصَلتِ المرأةُ ولَدَها، أي: فطمَتْه، وفَصَل المولودَ عَنِ الرَّضاعِ يَفْصِله فَصْلًا وفِصالًا، وافتَصَلَه: فَطَمه، والاسْمُ الفِصال[4]، وفي الحَدِيثِ: «لا رَضاع بَعدَ الفِصالِ»[5]، أي: بَعدَ أن يُفصَل الوَلَدُ عَن أُمِّه[6].

4) ﴿أَوْزِعْنِىٓ﴾: (وزع) بِناءٌ مَوضوعٌ على غَيْرِ قِياسٍ، ووَزَعْتُهُ عَنِ الأمْرِ: كَفَفْتُهُ، قالَ اللّه سُبحانَهُ: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النّمل: 17]، أي: يُحْبَسُ أوَّلُهُم على آخِرِهم[7]، والوزعُ: كفُّ النَّفْسِ عن هَواها، وبِناءٌ آخَرُ، يُقالُ: أوزَعَ اللّه فُلانًا الشُّكْرَ: ألْهَمَهُ إيّاهُ، ويُقالُ: هوَ مَن أوزِعَ بِالشَّيءِ؛ إذا أولِعَ بِه، كَأنَّ اللّه تَعالَى يولِعُهُ بِشُكْرِهِ[8]، والمعنى المحوريُّ: الكفُّ عن الانتشارِ تَجاوزًا للجماعةِ أو تَخَطِّيًا ومفارقةً[9]، وقَولُه: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ﴾، أي: ألْهِمْني، وتأويلُه في اللُّغَة: كُفَّني عَن الأشياء إلّا عَن شُكر نِعْمَتك، وكُفَّني عمّا يُباعدُني عَنك، ويُقال: قد أوزَعْتُه بالشَّيء إيزاعًا؛ إذا أغريتُه، وإنَّهُ لموزَعٌ بِكَذا وكَذا، أي: مُغْرًى بِه، والاسم الوَزوعُ، وقد أوزَعَهُ اللّهُ؛ إذا ألْهَمَهُ[10]، وتحقيقُه: أولعني ذَلِكَ، واجعلني بحيثُ أزِعُ نفسي عن الكُفْرانِ[11].

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وضع).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (وضع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وضع).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (وضع).
(5) رواه عبد الرّزاق في مصنفه، برقم: (14825)، والحديث مختلف في وصله ووقفه، انظر: مجموعة من المؤلّفين، المسند المصنف المعلل، مسند الصّحابة، مسند علي بن أبي طالب، برقم: (9606).
(6) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (وضع).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وزع).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وزع).
(9) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وزع).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وزع).
(11) الرّاغب، مفردات القرآن، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (وزع).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الـوَصِـيَّـةُ بالوالدين مِفتاحُ السَّدادِ وسبيلُ الرَّشادِ

بَيَّنَ النَّظمُ الحكيمُ في هذه الآيةِ وصِيَّةً عظيمةً مِن وصايا القُرآنِ، وهِي الأمرُ بالإحسانِ إلى الوالِدَينِ في الحياةِ وبعدَ الموتِ، وذلكَ بالحُنوِّ عليهما، والكلامِ اللَّطيفِ معهُما، والإنفاقِ عليهما عند الحاجةِ، والبشاشةِ عند لقائهما، وخَصَّ الذِّكْرُ الحكيمُ الأُمَّ مرَّةً في لفْظِ الوالِدَينِ، ثمَّ ذُكِرَتْ في مراتبَ ثلاثٍ أُخرى، وهي حَمْلُ الأمِّ ثُمَّ وضْعُها، ثمَّ إرضاعُها الولدَ، الَّذي عبَّر عنهُ بالفِصالِ، والحَمْلُ والوَضْعُ بمَشَقَّةٍ، حتّى إذا بلغ الولدُ أشدَّهُ، وكمُلَ عقلُه ورأيُه، واشتدَّ ساعدُه، وبلغَ أربعينَ سنةً، قال: ربِّ ألهِمْنِي، ووَفِّقْني أن أشكرَ نعمتَك الَّتي أنعمتَ بها عليَّ، وعَلى والِدَيَّ، من نعمةِ الهدايةِ إلى الدّينِ الحقِّ والتَّوحيدِ، وغيرِ ذلكَ مِن نِعَمِ الدُّنيا، كسلامةِ العقلِ والصِّحَّةِ، ووفرةِ العيشِ، وكمالِ الخِلقَةِ، وحنانِ الأبوينِ في الصِّغَرِ، وألْهِمْنِي، ووَفِّقْنِي للعملِ الصّالحِ الَّذي تَرضاه منّي، وأصلح لي في ذُرِّيَّتِي بجَعْلِهِم أهلَ طاعةٍ وخيريَّةٍ، إنِّي تُبْتُ من الذُّنوبِ، ورَجَعتُ إليكَ مِنَ العُيوبِ، وإنِّي من المُنْقادين لطاعَتِك، المُخْلِصينَ لتوحيدِكَ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نَوعُ الواوِ ودلالتُها في ﴿وَوَصَّيْنَا﴾:

الإحسانُ للوالدين ثمرةُ الاستقامةِ وأصلُ الرَّزانةِ

الواو في قول اللّهِ تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ استِئنافيَّةٌ؛ لأنَّ الَّذي بعدَها مَعْنًى مُسْتأنَفٌ، يُبيِّنُ وجهًا من وجوهِ الاستِقامَةِ، الَّتي صارَ إليه مَن قالوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ [الأحقاف: 13]، والتي انتهت بهم إلى أن يَكونوا مِن أصحابِ الجَنَّةِ، وهذه الوَصِيَّةُ تُمثِّلُ هذا الوجهَ؛ لأنَّها تعني أمرًا أمَرَهُ اللّهُ، فأنفذَهُ العابدُ المنقادُ لأمْرِ ربِّهِ[2]؛ إذ في الحَديثِ الصَّحيحِ أنَّه ﷺ سُئِلَ: أيُّ العَمَلِ

(1) وهبة الزّحيليّ، التّفسير الوسيط: 3/ 2416.

(2) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف): دراسة في أسرار البيان، ص: 408.

أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قال: «الصَّلاةُ على وقْتِها»، قال: ثُمَّ أيٌّ؟ قالَ: «ثُمَّ برُّ الوالِدَينِ»[1]، وكانَ عُقوقُهُما ثانيَ أكبَرِ الكَبائِرِ؛ إذ قالَ ﷺ: «ألا أُنَبِّئُكُم بأكبَرِ الكَبائِرِ؟» ثلاثًا، قالوا: بَلَى يا رَسولَ اللهِ، قال: «الإشراكُ باللهِ، وعُقوقُ الوالِدَينِ»[2].

بلاغَةُ اختيارِ مُفردَةِ (وَصَّيْنا) دونَ رَديفاتِها:

الوصيَّةُ تحملُ معنى الصِّلةِ مع الحثِّ على الفعلِ والامتثالِ

آثرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بالفعلِ (وَصَّيْنا) دونَ مُرادفاتِه، مثل: (عَهِدَ)، و(نصَحَ)، و(أرشدَ)، و(فرض)، و(أمَرَ)؛ لِما في الفعلِ (وَصَّى) مِنَ الدَّلالَةِ على وصلِ شَيءٍ بِشَيءٍ[3]؛ إذِ التَّوصِيَةُ: كالإيصاءِ، يُقالُ: أوصى ووَصّى، وهي أمرٌ بِفِعلِ شَيءٍ في مَغيبِ الآمرِ بِه، ففِي الإيصاءِ مَعْنى التَّحْريضِ على المَأمورِ بِهِ[4]، فَكان استِعمالُ هذِه المفردة مناسبًا تمامَ المُناسبةِ لجلالة الأمرِ الموصَى به، وهوَ برُّ الوالدَينِ، حتَّى يكونَ الإحسانُ نابعًا منَ القلبِ، بمحبَّةٍ وعِرفانٍ، لا مُجرَّدَ أداءٍ للواجب المفروض فرضًا.

دلالةُ إسنادِ فِعلِ (وَصَّيْنا) إلى ضَميرِ العَظَمةِ:

الإيماءُ إلى مكانةِ برِّ الوالدَينِ، وأنَّها وصيَّة العظيمِ سبحانه

أُسنِدَ فِعلُ الإيصاءِ إلى ضميرِ العَظَمةِ في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا﴾، فلم يقل: (وصَّى اللهُ)، أو (أوصيَ الإنسانُ)؛ لِما في الإسنادِ إلى نون العَظَمةِ مِنَ الإشعارِ بخُطورة قَضيَّةِ برِّ الوالدَينِ، وأنَّها مِنَ المحلِّ الأرفعِ في الإسلامِ، فأكسبَ ضميرُ العَظَمةِ الوصيَّةَ جلالًا وتقديرًا وتعظيمًا، ممّا يدلُّ عليه ضميرُ العَظَمةِ الَّذي في أوَّلِ السّورةِ: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الأحقاف: 3]، فهي وصيَّةُ العزيزِ الحكيمِ، الخالقِ الرّازقِ المُحْيي المُميتِ جَلَّ وتَقَدَّسَ، ومَن أنفذَها؛ فقدَ وجدَ الطَّريقَ لائِحًا لاحِبًا، لهُ منارٌ يَهْتَدِي

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (526).
(2) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (2693).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وصى).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 214.

به، يَصِلُه إلى صِراطِ اللهِ المستقيمِ، ومَن زاغَ، وعانَدَ؛ فقدَ صار مِنَ الَّذِين طَمَس اللهُ علَى أعينِهِم[1].

نَوعُ (ال) في لفظِ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾:

جاءَت مفردَةُ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ مُعرَّفةً بـ(الـ)، الدّالَّةِ على الجِنْسِ، أي: (وصَّيْنا النّاسَ)، فالمُرادُ بالإنسانِ - الَّذي وصّاه اللهُ - كُلُّ إنسانٍ، مُؤمنًا كانَ أو كافرًا، وهذا يُشْعِرُ بأنَّ هذه الوصيَّةَ ورَدَت في كُلِّ كُتبِ اللهِ، وأنَّها مِن شرعِنا ومِن شَرعِ مَن قبْلَنا، وقد زادَ هذا في الكتابِ العزيزِ، وفي سُنَّةِ رَسولِ اللهِ ﷺ، وزاد بذلك بِرُّ الوالدَين في هذه الأُمَّة، فَكانَ البِرُّ بالوالدَينِ أجْلى مَظهرًا في هذهِ الأُمَّةِ مِنهُ في غَيرِها، وكانَ مِن بَركاتِ أهْلِها بِحَيثُ لَم يبلغْ بِرُّ الوالِدَينِ مَبلَغًا في أُمَّةٍ مَبلغَهُ في المُسْلِمينَ، وأشارَ بَعضُهُم إلى أنَّ المُرادَ بِهِ خُصوصُ النّاسِ الَّذِينَ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ بِوَصايا اللهِ والَّذِينَ آمَنوا، وعَمِلوا الصّالِحاتِ، وذَلِكَ هو المُناسِبُ لِقَوْلِهِ في آخِرِها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾[2].

كُلُّ الخَلقِ مأمورونَ ببرِّ الوالِدَينِ، والمسلمونَ منهم على الخصوصِ

بَلاغةُ اختيارِ لفظِ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾:

آثرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ دونَ لفظِ (المُؤمِن)؛ لأنَّهُ لمّا كانَ المقامُ مقامَ حضٍّ وحثٍّ وتحريضٍ على الإحسانِ؛ كان التَّذْكيرُ بإنسانيَّةِ الإنسانِ أليقَ مِنَ التَّعبيرِ بخاصيَّةِ الإيمانِ، فإنَّ برَّ الوالدَينِ هوَ جوهرُ إنسانيَّةِ الإنسانِ، وثمَّةَ إشارةٌ دقيقةٌ في اختيارِ هذا اللَّفظِ، وهي خاصيَّةُ الأُنْسِ؛ إذِ المرادُ هَذا النَّوعُ الَّذي أنِسَ بِنَفْسِهِ[3]، ومِن ثَمَّ يَنْبَغي أن يُغلِّفَ الإيناسُ - المشتقُّ مِن لفظِ الإنسانِ - العلاقةَ بينَ الآباءِ والأبناءِ، وأن يسودها الوئام والتَّراحُم، لا مجرَّد الامتثالِ.

برُّ الوالدَينِ هو جوهرُ إنسانيَّةِ الإنسانِ، وفي أُنسِ الوالدَينِ رضا الرَّحمنِ

(1) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 412.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 29.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 144.

نوعُ الباءِ ودَلالتُها في ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾:

شدَّةُ الالتِصاقِ بينَ الأبناءِ والآباءِ تأكيدٌ للعنايةِ والبِرِّ والإحسانِ

جاءتِ الباءُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ للإلصاقِ المعنويِّ، فأفادتِ اتِّصالَ الفعلِ بمدخولِ الباءِ، دونَ انفصالٍ ولا مسافةٍ بَينَهُما، ولا شكَّ أنَّ الإلصاقَ في هذا المقامِ أبلغُ في تأكيدِ شأنِ العِنايةِ والإحسانِ بالوالدَين، وعلى هذا الأُسلوبِ جاءت جميع الآياتِ القرآنيَّةِ الَّتي توصِي بالإحسانِ بالوالدَينِ[1]، وكانَ مِن أثرِ الباءِ كذلكَ تعديةُ الفعلِ (وصَّيْنا)؛ لأنَّ فِعْلَ الوِصايَةِ يَتَعَدّى إلى الموصى عليه بالباءِ، ويَتَعَدّى إلى الفِعْلِ المَأمورِ بِهِ بِالباءِ أيضًا، وهو الأصلُ، فَإذا جَمَعَ بَينَ الموصى عَلَيهِ والموصى به، وغَلَبَ حَذْفُ الباءِ مِنَ البَدَلِ اكتِفاءً بِوُجودِها في المُبدَلِ مِنهُ، فَكَذَلِكَ قَولُهُ تَعالى هُنا: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ تَقديرُهُ: (وصَّيْنا الإنسانَ بِوالِدَيهِ بِحُسْنٍ) بِنَزْعِ الخافِضِ[2].

بلاغةُ اختيارِ عنوانِ الوالِدِيَّةِ دونَ الأبَوِيَّةِ:

تغليبُ الوالِدِيَّةِ باعتبارِ ما تضمَّنه السِّياقُ من ذِكْرِ الحَمْلِ والوِلادةِ

آثَرَ البَيانُ القرآنيُّ الحكيمُ استعمالَ عُنوانِ الوالديَّةِ دونَ الأبويَّةِ، فَقال: ﴿بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾؛ وذلكَ لأنَّ مِن دِقَّةِ النَّظمِ الكريمِ تغليبَ جِهَةِ الوالدةِ في سياقِ البِرِّ والشَّفَقةِ، ويكونُ المرادُ فيها توجيهَ العنايةِ بالوالدَين بهذا الاعتبار، ويُلْحَقُ بها الأبُ تَغْليبًا، الَّذي يُسَمَّى (والِدًا)[3]، ولَمّا كانَ سياقُ الآيةِ حثًّا على البِرِّ والإحسانِ، فضلًا عن استفاضَةِ الآيةِ في الحديثِ عَمّا تَحمَّلَتْهُ الأمُّ مِنَ المشاقِّ؛ فقد آثَرَ النَّظْمُ التَّعبيرَ بلفظِ (الوالِدَين) دونَ (الأبوين)؛ لحاجةِ الأمِّ للإحسانِ أكثرَ مِنَ الأبِ، لِما في جبلَّتها من الضَّعفِ، مُقارنَةً بالأبِ غالبًا، ولِذا فقد جاء الحديثُ الشَّريفُ بتأكيدِ حقِّ الإحسانِ إليها

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 8/ 163.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 214.
(3) عبد العظيم المطعني، خصائص التّعبير القرآنيّ وسماته البلاغيّة: 1/ 283، و286.

وتَقَدُّمِه على حقِّ الأبِ، فعَن أبي هُرَيرَةَ ﷺ قالَ: جاءَ رَجُلٌ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ، فَقالَ: مَن أحَقُّ النّاسِ بِحُسْنِ صَحابَتِي؟ قالَ: «أُمُّكَ»، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ»، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ»، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: «ثُمَّ أبوكَ»[1].

نُكْتَةُ استعمالِ الضَّميرِ المُفرِدِ دونَ الجمعِ:

الجمعُ بينَ الوصيَّةِ العامَّةِ للنّاسِ ولكلِّ إنسانٍ باعتباره الخاصِّ

جاءَ النَّظمُ الكريمُ بإفرادِ الضَّميرِ في ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾ دونَ الجمعِ، فلم يقلْ: (بوالديهم) - رغم أنَّ التَّعريفَ في لفظِ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ للجنسِ - وذلك لبيانِ عَوْدِ الضَّميرِ على لفظِ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ مفردًا؛ لِبيانِ المسؤوليَّةِ الفرديَّةِ لكلِّ ابنٍ عن والديه، فمهما تعدَّدَ الأبناءُ لِكِلا الوالدَينِ، أو لكلِّ واحدٍ منهُما؛ تبقى الوصيَّةُ فرديَّةً على كلِّ ابنٍ على حِدَةٍ، لازمَةً في عنقه تجاه والدَيه، ولا تسقطُ عنه بقيامِ أحدِ إخوتِهِ بها، ففي إفرادِ الضَّميرِ إشارةٌ إلى أنَّ البرَّ بالوالدَين والإحسانَ إليهما فرضُ عينٍ على كلِّ ابنٍ من أبنائِهما، فالوصيَّةُ عامَّةٌ في كلِّ إنسان، لكنَّها جاءت توحي بأنَّ كلَّ إنسانٍ مخاطَبٌ بهذه الوصيَّة وحدَه، ومن هنا جَزُلت هذه النُّكْتَة.

بلاغةُ اختيارِ مُفردةِ ﴿إِحْسَٰنًا﴾:

كثافةُ الدَّلالاتِ في مفردَةِ الإحسانِ الَّتي تحضُّ على الحنانِ والبِرِّ والرِّقَّةِ والجَمالِ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بمفردَةِ الإحسانِ في قولِه تعالى: ﴿بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ دونَ غيرها من المفردات الَّتي تصلح في هذا المقام، كالبِرِّ والصِّلَةِ، وغيرهما؛ وذلكَ لما في مفردةِ الإحسانِ منَ الدَّلالاتِ الكثيفةِ الَّتي تحضُّ على المبالغَةِ في الإحسان والبرِّ؛ إذِ الإحسانُ ضدُّ الإساءَة[2]، ففيها معنى النَّهي عن الإساءةِ بما هوَ أبلغُ مِنها، وفيها كذلكَ معنى نَقاء الشَّيءِ ورِقَّته، بخُروجِ الخَشنِ أوِ

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (6664).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حسن).

الغَليظِ الَّذي يُخالِطُهُ، فَيَشوبُ رِقَّتَه[1]، فيكتسي الإحسانُ ثوبَ الرِّقَّةِ والحنان، كَما أنَّ الحُسْنَ عِبارَةٌ عَن كُلِّ مُبهِجٍ مَرغوبٍ فِيه، وكُلِّ ما يَسُرُّ مِن نِعمَةٍ تَنالُ الإنسانَ في نَفسِهِ وبدَنِه وأحوالِه[2]، فاحتوَت لفظَةُ الإحسانِ على دلالاتٍ لا تشتَمِلُ عليها غيرها؛ لمناسَبَةِ المقامِ في برِّ الوالدَين.

أثرُ الإعرابِ في تنوُّعِ المَعنى في لفظِ ﴿إِحۡسَٰنًا﴾:

تَـنـوُّعُ المعـانِي المُـترتِّـبَـةِ على كُـلِّ وجـهٍ لمزيدِ الـعـنـايـةِ بـبرِّ الوالدَينِ وبيانِ أوجُهِ الإحسانِ

تعدَّدت أقوالُ المُعْربين[3]، في قوله تعالى: ﴿إِحۡسَٰنًا﴾ على ستَّةِ أقوالٍ، **الأوَّلُ:** أنَّهُ مفعولٌ مطلقٌ لفعلٍ محذوفٍ، أي: (وَصَّينا بأن يُحْسِنَ إليهما إحسانًا)، فهو مصدرٌ مؤكِّدٌ، ففيه إيجازٌ بالحذف، ونُكْتَتُه الاهتمامُ بالفعلِ في حَدِّ ذاته، أي: قُلْنا له: أحْسِنْ إحسانًا، على أنَّ معنى (وَصَّيْنا): قلنا له، أو أنَّ (وَصَّى) يجري مجرى (أمَرَ)، معنًى وتصرُّفًا، و**الثّاني:** أنَّهُ مفعولٌ بهِ على تضمين (وَصَّيْنا) معنى (ألزمنا)، فهو على هذا مفعولٌ به ثانٍ، وعلى هذا الوَجْهِ فيه إلزامٌ وتكليفٌ، ومِن ثَمَّ فَفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ في مخالفةِ الوَصِيَّةِ إغضابًا لله تعالى، أو على أنَّهُ مفعولٌ بهِ لمحذوفٍ على تقديرِ: (وَصَّيْنا الإنسانَ أن يفعلَ بِوالدِيهِ إحسانًا)، و**الثّالثُ:** أنَّهُ منصوب على أنَّه مفعولٌ له، أي: (وصَّيْناه بِهما إحسانًا مِنّا إليهما)، وعلى هذا الوجْهِ ففيه تعليل الأمر بالإحسانِ[4]، و**الرّابعُ:** أنَّهُ منصوب على المصدر الصَّريح؛ لأنَّ معنى (وَصَّيْنا) أحْسَنّا، فهو مصدر صريح، والمفعول الثّاني هو المجرور بالباء، و**الخامس:** أنَّهُ منصوبٌ على نزعِ الخافضِ، أي: (وَصَّيْنا الإنسانَ بِالإحسانِ إلى والديه)، وعلى هذا الوجْهِ تَتَكَرَّرُ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حسن).
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (حسن).
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 667، والخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 26/ 38.
(4) محيي الدّين الدّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 9/ 176.

الباءُ، فتلتصقُ بالإحسانِ، فيكونُ ثَمَّةَ تلازُمٌ بين الوَصِيَّةِ والإحْسانِ، **والسّادسُ**: أنَّهُ منصوبٌ على الحاليَّةِ، والتَّقديرُ: وصَّيْنا الإنسانَ بوالِدَيه ذا إحسان.

تَوجيهُ القِراءاتِ القُرآنيَّةِ:

في قراءةِ (حُسْنًا) إرشـادٌ إلى كُـلِّ جميلٍ رائـقٍ مِنَ الـقـولِ والـفـعلِ والسُّلوكِ

اختلف القُرّاءُ في كلمةِ ﴿إِحْسَٰنًا﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾؛ فقرأ الكوفيّونَ ﴿إِحْسَٰنًا﴾ بزيادةِ همزةٍ مكسورةٍ قبل الحاءِ، وكذلك هي في مصاحفِ الكوفةِ، وقرأ الباقونَ: ﴿حُسْنًا﴾ بضَمِّ الحاءِ، وإسكانِ السّينِ من غير همزة ولا ألفٍ، وكذلك هيَ في مَصاحِفهم[1]، ورغمَ التَّقاربِ الشَّديدِ بين اللَّفظينِ، فإنَّ ثَمَّةَ مَعْنًى زائدًا في ﴿حُسْنًا﴾، فكأنَّهُ في ذاتهِ نَفْسُ الحُسْنِ؛ لِفَرْطِ حُسنِه، وهوَ أن يتخيَّرَ الإنسانُ من القولِ ما هوَ أجملُ وأحسنُ وأرفعُ، وأن يبتعدَ عن الكلمةِ النّابيةِ، والسُّلوكِ الخَشِنِ، وأن يُجانبَ القُبحَ في كلِّ ما يأخذُ، ويدَعُ، وأن يتخيَّرَ الأجملَ والأحسنَ والأزينَ، ولا يُتَصَوَّرُ أن يكون حُسْنًا مع الوالدَين وقُبْحًا مع النّاسِ؛ لأنَّ قُبْحَه مع النّاسِ سيسوءُ الوالدَينِ، وكأنَّ الوصيَّةَ تنتهي إلى أن يدخل في قول رسول الله ﷺ: «إنَّ من أحَبِّكُم إليَّ وأقْرَبِكُم مِنِّي مَجلِسًا يَومَ القِيامَةِ أحاسِنَكُم أخلاقًا»[2].

غرَضُ تَنْكِيرِ لفظِ ﴿إِحْسَٰنًا﴾:

أعظمُ الإحسانِ الإحـسـانُ إلى الوالدَينِ

جاء النَّظمُ الكريمُ بمفردةِ ﴿إِحْسَٰنًا﴾ نَكرَةً، وعدلَ عن تعريفها، فلم يقل: (وَوصَّينا الإنسانَ بالإحسانِ إلى والديه)؛ وذَلِكَ لِما في التَّنوينِ مِنَ الإشارةِ لِلتَّفخيمِ والتَّعظيمِ، أي: إحْسانًا عَظيمًا، فَفي الآيَةِ إشعارٌ بِأنَّ الإحسانَ بِهِما أمرٌ مُعتَنًى بِهِ[3].

---

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 373.

(2) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 412، والحديث أخرجه التّرمذي في سننه، برقم: (2150).

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 175.

عِلَّةُ فَصْلِ جُملةِ ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾:

أوَّلُ ما يوجبُ الإحسانَ للأُمِّ ما تحَمَّلَتهُ من مشاقِّ الحَمْلِ

فصلَ النَّظْمُ الجليلُ جملةَ: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾ عَن جملةِ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾؛ لما بينهما من شبهِ كمالِ الاتِّصالِ، أو ما يُسمَّى بالاستِئناف البيانيِّ، فأثارت الجملةُ الأولى في نفسِ المُتلقِّي سؤالًا، مُفادُه: لماذا هذه الوَصِيَّةُ العظيمةُ المُؤَكَّدَةُ بالإحسانِ إلى الوالدَينِ؟ فجاءَتِ الجملةُ الثّانيةُ جوابًا عن هذا السُّؤالِ، فَبيَّنَتْ سببَ الإيصاءِ وعِلَّتَهُ بما لاقتهُ الأمُّ مِنَ المشاقِّ، وكانَ أوَّلُ هذه المشاقِّ مَشاقَّ الحَمْلِ.

دلالةُ اختيارِ صيغةِ الماضِي ﴿حَمَلَتْهُ﴾:

تحقُّقُ مشقَّةِ الحَمْلِ يوجبُ الإحسانَ على كلِّ إنسانٍ

عبَّرَ البيانُ القُرآنيُّ الحكيمُ عن أوَّلِ مشاقِّ الأُمِّ الموجِبَةِ للإحسانِ إليها بالفعلِ ﴿حَمَلَتْهُ﴾ بصيغةِ المُضِيِّ؛ لِبيانِ تحَقُّقِ الحملِ لكلِّ إنسانٍ مخاطَبٍ بهذه الآيةِ، فكلُّ حيٍّ خوطِب بالآيةِ فقد حملتْه أمُّه، وبيانِ مشقَّةِ الحَمْلِ لكلِّ أُمٍّ إلى يومِ القيامَةِ، فما مِن إنسانٍ حَملتهُ أمُّهُ إلّا وقد تحقَّقَ في حَمْلِه نوعٌ مِنَ المشقَّةِ، وبِهَذا التَّحقُّقِ واليقينِ ثبتتِ التَّوصيةُ لكلِّ أُمٍّ على بنيها، وثبتَ وجوبُ الإحسانِ على كلِّ إنسانٍ إلى يومِ القيامةِ.

نُكْتَةُ اختيارِ صِفَةِ الأُمومةِ دونَ الوالِدِيَّةِ:

لفظُ الأُمِّ عنوانُ الرَّحمةِ، وفيه مَعنى الضَّمِّ والاحتواءِ والاشتمالِ

عَبَّرَ النَّظمُ بمفرَدَةِ (الأُمِّ)، وعدلَ عن مفردَةِ (الوالِدَةِ)، فلم يقل: (حملتْهُ والدتُه)؛ وذلك لتحاشي التَّكرار اللَّفظيِّ بذِكْرِ الوالديَّة مرَّتين بغير نُكْتةٍ، ولأنَّ الحملَ سابقٌ للولادةِ، فلا يُقال: حملتهُ والدتُه باعتبارِ أنَّ الولادةَ مآلُ الحملِ، ولأنَّ لفظَ (الأُمِّ) هو عنوانُ الرَّحمةِ، فيقالُ لكلِّ ما كانَ أصْلًا لِوجودِ شيءٍ أو تَربيَتِه أو إصلاحِه أو مبدَئِه، كَما أنَّ فيها معنى الضَّمِّ والاحتواءِ عليه[1]، وهوَ الحاصل في حال الحملِ، مِن اشتِمالِ الرَّحمِ على الجنينِ وضَمِّهِ

(1) الرّاغب، المفردات: (أمم).

واحتوائِه، وابتدَأ بِحَقِّ الأمِّ، وخصَّه بالذِّكرِ؛ لظهورِ حَقِّ الأبِ بِما لَهُ مِنَ الكَسْبِ والإنفاقِ والذَّبِّ والتَّأديبِ، فلَم يَذْكُرْهُ، وذَكَرَ ما لِلأُمِّ؛ لأنَّ أمَدَهُ يَسيرٌ، فَرُبَّما استُهِينَ بِهِ[1].

تَوجيهُ إشكالِ اختيارِ لَفْظِ ﴿كُرْهًا﴾:

الـكُـرْهُ طريقُ تحقيقِ الغايةِ المـحـبـوبـةِ وتحصيلِ المطلبِ العزيز

عَبَّرَ النَّظمُ الحكيمُ عن مشقَّةِ الأمِّ في الحَمْلِ بلفظ ﴿كُرْهًا﴾، والكُرْهُ هو الامتعاضُ مِن شَيءٍ، أي: كانَ حَمْلُهُ مَكْروهًا لَهُ، أي: حالَةَ حَمْلِهِ وولادَتِهِ لِذَلِكَ، والمَعْنى: أنَّها حَمَلَتْهُ في بَطْنِها مُتْعَبَةً مِن حَمْلِهِ تَعَبًا يَجْعَلُها كارِهَةً لِأحوالِ ذَلِكَ الحَمْلِ[2]؛ لِما فيه مِن مَشَقَّةٍ وتَعَبٍ، من وحَمٍ وغَشَيانٍ وثِقَلٍ وكَرْبٍ[3]، وهذا قد يبدو متعارضًا مع ما تمرُّ به بعضُ الأمَّهات من الفرحِ والسُّرورِ والشَّوق أثناء الحَمْلِ وعند الوضعِ، واللّهُ وصفَ الحملَ والوضع بكونه كرهًا، وتوجيه ذلك: أنَّ الأُمَّ يمتزجُ عندها الفرحُ بالقادم، مع كراهيَة الحملِ والوضعِ، وهذا كمَن يعمل، وهو متعبٌ، ومضطرٌّ إلى ذلك لما ينتهي إليه العملُ من سدِّ الحاجةِ، وتحقيقِ الغاية؛ ففيه بيانُ مجاهدةِ الأمِّ التي تواجِهُ المكارِهَ، لتحقيقِ ما تُحبُّه من وضعِ الولد، ففيه بيانُ منَّةِ الأُمِّ، وتصويرُ تعبِها لإنجابِ ولدِها.

توجيهُ القراءاتِ في لفظِ ﴿كُرْهًا﴾:

التَّنوُّعُ اللَّفظيُّ ثـراءٌ في النُّـطقِ وتوافقٌ في المعنى

وَردَت في كلمةِ ﴿كُرْهًا﴾ قراءتانِ متواترتان، فقَرَأَ الجُمهورُ ﴿كَرْهًا﴾ في المَوضِعَينِ بِفَتحِ الكافِ، وقَرَأَهُ عاصمٌ وحَمزَةُ والكِسائيُّ ويعقوب وخَلَف بِضَمِّ الكافِ في المَوضِعَينِ على خلافٍ بينهم[4]، وذهب الجمهورُ إلى أنَّهُ لا فَرقَ ما بَين الضَّمِّ والفتحِ في العربيَّة، ولا في سُنَّةٍ تُتَّبَعُ، إلّا الفرّاء، فَإنَّهُ زعم أنَّ الكُرْهَ ما أكرهتَ نفسَك عَلَيه،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 145.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 29.
(3) وهبة الزّحيليّ، التّفسير المنير: 26/ 32.
(4) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 248.

والكَرْهَ ما أكرهكَ غيرُكَ عَلَيه[1]، وقيلَ: الكَرْهُ: المشقَّةُ الَّتي تنالُ الإنسانَ من خارجٍ فيما يُحْمَلُ عليه بإكراهٍ، والكُرْهُ: ما ينالُهُ من ذاته، وهو يَعافُه[2]، وأشارَ بعضُهُم إلى أنَّ المَلمَحَ الدَّلاليَّ الفارقَ بين الكَرهِ والكُره: أنَّهما يشتركانِ في الشِّدَّةِ والمشقَّةِ، ويتميَّزُ المضمومُ بمَلْمَح الرِّضا، بينما يتميَّزُ المفتوحُ بعدم الرِّضا[3]، وما عليه الاستعمالُ في الآيةِ هو أنَّ اللَّفظين من بابِ التَّنَوُّع، فلا يخرجان عن كونهما لُغتين متوافقتَين في المعنى.

نوع الواو ودلالتُها في ﴿وَوَضَعَتْهُ﴾:

جاءَتِ الواوُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ عاطفةً، فعطفت على ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾؛ لبيانِ مَشقَّةٍ أخرى من المشاقِّ الَّتي توجبُ الإحسانَ للأُمِّ على وجهِ الخصوصِ، فجاءَ العطفُ لمزيدِ الحضِّ والحثِّ على برِّها.

العطفُ لمزيدِ الحضِّ على برِّ الأُمِّ والإحسان إليها

نُكتَةُ اختيارِ لَفظِ (وَضَعَتْهُ):

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بمفردةِ (وَضَعَتْهُ) دونَ (ولدَتْهُ)؛ لِما في مفردةِ (الوضع) مِنَ الدَّلالةِ على الهويِّ بالشَّيءِ إلى مقرٍّ مُنخفضٍ، يَثْبُتُ فيه عن حيِّزٍ عالٍ كانَ فيه[4]، فدلالةُ الأصلِ اللُّغَويِّ تُشيرُ إلى رِفعَةِ مقامِ الأُمِّ، وسقوطِ مقامِ الابنِ والابنةِ إزاءَ مقامِها مهما عَلَتْ بِهِم المناصبُ والأقدارُ، ففي لفظِ (الوضع) تذكيرٌ دائمٌ ونُصْحٌ مقيمٌ بأنَّ للأُمِّ منزلةً عُليا، وفضلًا كبيرًا على أبنائِها وبناتِها، يوجبُ عليهم الإحسانَ إليها، وخفضِ الجَناحِ لها، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: 24].

الأُمُّ هي الأعلى مقامًا من أولادِها مهما ارتفعَتْ بهمُ المناصبُ والأقدارُ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (كره).
(2) الرّاغب، المفردات: (كره).
(3) محمّد داوود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن، ص: 434، و435.
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وضع).

نُكْتَةُ تَكرار لفظِ ﴿كُرْهًا﴾:

كَرَّرَ النَّظمُ الجليل لفظَ ﴿كُرْهًا﴾ مرَّتين، في قولِه تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾، وعدلَ عنِ الإتيانِ بها مرَّةً واحدةً، فلم يقل: (حملتْهُ، ووضعتهُ كُرْهًا)، ولو جاءَ النَّظْمُ على ذلك؛ لكانَ كافيًا، ولَكِنَّ تكرُّرَها مرَّةً مع كلِّ فِعْلٍ أفادَ تحقيقَ مَعناها وتوكيدَهُ؛ لأنَّه المقصود؛ إذ أرادت الآيةُ بيانَ أنَّ هذه الأُمَّ الَّتي توصِي الآيةُ بها عانت كُرْهَين، لا كُرْهًا واحدًا[1]: كُرْهَ الحَمْلِ وكُرْهَ الوَضعِ، ففيه دلالةٌ على أنَّ كلَّ كُرْهٍ له خصوصيَّتُه وصفاتُه؛ ليكونَ ذلكَ أدْعَى لتحريك عاطفةِ المحبَّةِ والشَّفَقَةِ والحُنوِّ على هذه الأُمِّ المُتْعَبَةِ المتألِّمة.

الإيماءُ إلى اختلافِ طبيعةِ كُرْه الحَمْل عن كُرْهِ الوَضعِ، فهما كُرْهان لا كُرْهٌ واحد

نوعُ الواوِ ودلالتُها في ﴿وَحَمْلُهُۥ﴾:

جاءَتِ الواوُ عاطِفَةً في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ فالجملةُ معطوفةٌ على جملة: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾ وما عُطِفَ عليها؛ لأنَّ الجملةَ الثَّالثةَ تُبيِّنُ معنًى مُتَرتِّبًا على الجملةِ الأولى وما عُطِفَ عليها، وليسَ مُتَرتِّبًا على الجملةِ قبْلَها: ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾، وهذا بابٌ من فقهِ البيانِ، فيه مِنَ الخفاءِ واللُّطفِ ما يوجِبُ العنايةَ به، وهذه الجملُ الثَّلاثُ تُشَكِّلُ معنًى واحدًا؛ إذ هِيَ علَّةٌ لهذه الوصيَّةِ، وحَثٌّ على الوفاءِ بها، وبيانٌ لِحقِّ الوالدَةِ على الولدِ، وفيها إشارةٌ إلى أنَّ صاحبَ المروءةِ لا يضيعُ عندَه معروفٌ[2].

ترتُّبُ الفصالِ على الحملِ لِبيانِ المَشَقَّةِ تلوَ المَشَقَّة

بلاغةُ اختيارِ مُفردةِ الفِصالِ دونَ الفِطامِ:

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ آثرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بالفِصالِ لإرادةِ النِّهايَةِ؛ لأنَّ الفِطامَ قد يَكونُ قَبْلَ النِّهايَةِ لِغَرَضٍ، ثُمَّ تَظْهَرُ الحاجَةُ، فَتُعادُ الرَّضاعَةُ[3]، والفِصالُ كالفَطْمِ والفِطامِ بِناءً ومَعْنًى، وقِيلَ: الفِصالُ بِمَعْنى وقْتِ الفَصْلِ،

الإيماءُ إلى مرحلةِ الالتصاقِ الَّتي يتغذّى فيها الولدُ على بَدَنِ أُمِّه

(1) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 415.
(2) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 416.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 146.

أي: الفَطْم، فَهو مَعْطوفٌ عَلى مُدَّةِ الحَمْلِ، والمُرادُ بِالفِصالِ الرَّضاعُ التّامُّ المُنْتَهي بِالفِطام؛ ولِذَلِكَ عَبَّرَ بِالفِصالِ عَنهُ أو عَن وقتِهِ دونَ الرَّضاعِ المُطلَقِ، فَإنَّهُ لا يُفِيدُ ذَلِكَ[1]، وفي الوَصفِ تَطويلٌ، والآيَةُ بَيانٌ لِما تُكابِدُهُ الأُمُّ، وتُقاسِيهِ في تَربيَةِ الوَلَدِ مُبالغةً في التَّوصِيَةِ لَها، وقَد أُشِيرَ في الآيَةِ إلى ما يَقتَضِي البِرَّ بِها على الخُصوصِ في ثَلاثِ مَراتِبَ، فَتَكونُ الأوامِرُ في الخَبَرِ كالمَأخوذَةِ مِن ذَلِكَ[2]، وقيل: بل عبَّرَ عن الفِطامِ بِالفِصالِ؛ لأنَّ بينَهُما مُجاورةً شديدةً، فجاز التَّعبيرُ عن أحدِهِما بالآخرِ لأجلِ هذِه المُجاورةِ، والقيمةُ المعنويَّةُ المرادةُ هي الإشارةُ إلى أنَّ هذا هو الأصلُ في الحَملِ والرَّضاعِ، وأنَّهُ إذا انتهتِ الثَّلاثونَ؛ فالأصلُ الفِصالُ[3]، وفي اللَّفظِ إشارةٌ إلى مرحلةِ الالتصاقِ، فإنَّ الولدَ ينفصلُ عن أُمِّه بعد هذه المُدَّةِ في الطَّعامِ والشَّرابِ، ففي حالِ الحَملِ والرَّضاعِ يكون متغذّيًا على بدنِ أُمِّه، وبعد الرَّضاعِ يتغذّى على المُعتادِ من طعامِ النّاسِ، فهو تنبيهٌ على أحوالِ الأولادِ مع أمَّهاتهم، وتحذيرٌ إشاريٌّ من فصالٍ آخر عند بلوغِ الكِبَرِ.

نُكتَةُ العَدِّ بِالشُّهورِ دونَ الأعوامِ:

ذِكْرُ الشُّهورِ دون العامِ أدلُّ على طولِ النَّصَبِ والتَّعبِ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ عن مدَّةِ الحَملِ إلى الفصالِ بالشُّهورِ دونَ الأعوامِ، في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾، فَلم يقل: (وحَمْلُهُ وفصالُهُ عامانِ ونصفٌ)؛ وذلك لأنَّ في ذِكرِ الثَّلاثينَ شَهْرًا بيانًا أوْفَى وأدقَّ لطولِ المُدَّةِ الَّتي تكابِدُ الأُمُّ فيها الآلامَ الجِسميَّةَ والنَّفسيَّةَ، فتسهرُ اللَّيالي ذوات العددِ؛ إذا مَرِضَ، وتقومُ بِغذائِه وتنظِيفِه وكُلِّ شؤونِه بلا ضَجَرٍ ولا مَللٍ، وتحزنُ إذا اعتلَّ جسمُه، أو

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 287.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 176.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 302.

نالَهُ مكروهٌ يؤثِّرُ في نُموِّه وحُسْنِ صحَّتِه[1]، فالتَّعبيرُ بالشُّهورِ أقوى في الحَثِّ على البِرِّ والإحسانِ، وذلك أنَّ المُدَد الزَّمانيَّة يُعبَّر بها عن مضمونِها من التَّعب والنَّصَب، أو الفرح والسّرور، فقالوا: يومٌ بسَنة، وقيل: سَنةُ الوصالِ سِنَةٌ، وسِنةُ الفراقِ سَنةٌ، فلمّا كان أمْرُ الحَمْل والرَّضاعِ شديدًا؛ ناسبَه ذِكرُ الشَّهر لكثرة عدده، دونَ العام لقِلَّة عدده، فهو تعبير عن الحالةِ النَّفسيَّة والإرهاق البدنيِّ الَّذي تمرُّ به الأُمُّ في حالِ حملِها ورضاعِها، وبه يظهرُ الامتنانُ على الإنسانِ، بما يحمله اللَّفظُ من معنى النَّصبِ والشِّدَّة.

بلاغة المجاز ودلالتُه:

قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ إمّا أن يكونَ مجازًا مُرْسَلًا علاقتُه المُجاورَةُ؛ لأنَّ الفِصالَ هوَ الفِطامُ، وأُريدَ بِهِ هُنا مُدَّتُه الَّتي يعقُبُها الفِطامُ[2]، فذُكِر الفصالُ، وهو بعدَ الفطام ومجاورٌ له، وإمّا أن نوجِّهَهُ على المجازِ بحَذْفِ مُضافٍ، تَقْديرُهُ: ومُدَّةُ حَمْلِه وفِصالِه، وهَذا لا يَكونُ إلّا بأن يَكونَ أحدُ الطَّرفَين ناقِصًا، وذَلِكَ إمّا أن تَلِدَ المَرأةُ لِستَّةِ أشْهُرٍ، وتُرْضِعَ عامَيْنِ، وإمّا أن تَلِدَ لِتِسْعَةِ أشهُرٍ عَلى العُرْفِ، وتُرْضِعَ عامَيْنِ غَيْرَ رُبْعِ العامِ، فَإن زادَتْ مُدَّةُ الحَمْلِ؛ نَقَصَتْ مُدَّةُ الرَّضاعِ، وبالعكْسِ، فيترتَّب مِن هذا أنَّ أقَلَّ مُدَّةِ الحَمْلِ سِتَّةُ أشهُرٍ، وأقَلُّ ما تُرضِعُ الأُمُّ الطِّفلَ عامٌ وتسعةُ أشْهُرٍ، وإكْمالُ العامَيْنِ هو لِمَن أرادَ أن يُتِمَّ الرَّضاعَ[3].

تحديدُ حقِّ الطِّفلِ في الرَّضاعِ عندَ الصِّغَرِ إلزامٌ لهُ بالإحسانِ عندَ الكِبَرِ

نوعُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ودلالةُ استِعمالِها:

يحتمل حرفُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أن يكونَ حرفَ غايةٍ وجرٍّ[4]، ولا بُدَّ مِن جملةٍ محذوفةٍ تكونُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾

من بلاغةِ القرآنِ الاهتمامُ بموضعِ العِبرَةِ دونَ غيرِها؛ لابتنائِهِ على الإيجازِ البليغِ

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 26/ 17.
(2) محيي الدّين الدّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 9/ 178.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 97.
(4) الخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 26/ 39.

غايةً لها[1]، أي: فَعاشَ، أو استَمَرَّت حَياتُهُ، حَتّى إذا اكتَهَلَ، واستَحْكَمَ قوَّتُهُ وعَقْلُهُ[2]، وقد أفادَتْ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هُنا أنَّ ثمَّةَ مراحلَ مطويَّةً بين الفصالِ وبلوغِ الأشُدِّ، فدلَّتْ على ضربٍ من البلاغَةِ القُرآنيَّةِ العاليةِ في الإيجازِ، بذِكرِ مواطِنِ العِظَةِ والاعتبارِ دونَ سواها، وقيل: إنَّما طوَتْ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ما بَعدَ الفصالِ؛ لأنَّهُ تارَةً يَشتَرِكُ في مُؤنَتِهِ الأبَوانِ، وتارَةً يَنفَرِدُ أحَدُهُما[3]، ويحتملُ أن يكونَ حرفُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائيًّا، ومَعناه مَعْنى فاءِ التَّفريعِ عَلى الكَلامِ المُتَقَدِّمِ، وإذا كانَتْ (حَتّى) لا يُفارِقُها مَعْنى الغايَةِ؛ كانَت مُؤذِنَةً هُنا بأنَّ الإنسانَ تَدَرَّجَ في أطوارِهِ مِن وقْتِ فِصالِهِ إلى أن بَلَغَ أشُدَّهُ، أي: هو موصًى بوالِدَيهِ حُسْنًا في الأطوارِ الموالِيَةِ لِفِصالِه، أي: يوصِيهِ وليُّهُ في أطوارِ طُفولَتِه، ثُمَّ عليهِ مُراعاةُ وصِيَّةِ اللّه في وقْتِ تَكْليفِهِ[4].

بلاغةُ استعمالِ ﴿إِذَا﴾ بَعدَ ﴿حَتَّىٰٓ﴾:

جاء استعمالُ ﴿إِذَا﴾ بَعْدَ ﴿حَتَّىٰٓ﴾؛ لِيُرَتِّبَ عَلَيْها تَوْقِيتَ ما بَعدَ الغايَةِ مِنَ الخَبَرِ، أي: كانَتِ الغايَةُ وقْتَ بُلوغِهِ الأشُدَّ، ففيه العِبرةُ العظمى، والغايةُ الكبرى.

دلالةُ استعمالِ ﴿إِذَا﴾ دونَ (إنْ):

الحكمةُ الإلهيَّةُ قاضِيةٌ بإعمارِ الأرضِ ببلوغِ مجموعِ النّاسِ الأشدَّ لا جميعهم

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ الحكيمُ استعمالَ الظَّرف ﴿إِذَا﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ ذلك البُلوغَ كائنٌ - لا محالةَ - وهذا في مجموعِ الخَلقِ لا في جميعِه، وأنَّهُ إذا بلغ الأشدَّ؛ قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾، وهذا الكلامُ وإن كانَ وصْفًا وإخبارًا لما سيكونُ منه، هو في الحقيقةِ تَوجيهٌ لَهُ بفعلِه، وأنَّ اللّهَ تعالى يدعوه إلى أن يقولَ: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾؛

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 669.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 176.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 146.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 31.

إذا بَلَغَ الأشُدَّ، وبلغَ الأربَعينَ[1]، وعَدَلَ عن استعمالِ (إن)؛ لأنَّها تأتي لما هو غير متحقِّق الوقوع، ولمّا كانَت الحِكمَةُ الإلهيَّةُ قاضِيَةً بإعمارِ الأرضِ بالبشَرِ؛ كان لا بدَّ مِن بلوغِ كثيرٍ منَ النّاسِ الأشُدَّ والأربعينَ.

بلاغةُ الاستعارةِ في مفردةِ ﴿بَلَغَ﴾ وصيغتِها:

تشبيهُ المستقبلِ بالماضي لبيانِ سرعةِ التَّحقُّق وتأكيده

لَمّا كانَ (إذا) ظَرْفًا لِزَمَنٍ مُستَقبَلٍ؛ كانَ الفِعْلُ الماضي بَعْدَها مُنقَلِبًا إلى الاستِقبالِ، وإنَّما صِيغَ بِصيغَةِ الماضي تَشبيهًا لِلمُؤَكَّدِ تَحصيلُهُ بالواقِعِ، فَهو استِعارَةٌ، و(إذا) تَجريدٌ لِلاستِعارَةِ، والمَعنى: حَتّى يَبلُغَ أشُدَّهُ، أي: يَستَمِرَّ على الإحسانِ إلَيهما إلى أن يَبلُغَ أشُدَّهُ[2]، ففي لفظِ ﴿بَلَغَ﴾ معنًى مجازيٌّ آخر؛ إذِ الأصلُ في معنى البلوغِ وصولُ الشَّيءِ إلى غايةٍ لهُ[3]، وأمّا المُرادُ هُنا؛ فهوَ التَّدرُّجُ في مراحلِ القوَّةِ الَّتي تُخرِجُ من ضَعْفِ الصِّبا إلى فُتوَّةِ الرُّجولَةِ، والتَّدرُّجُ في مراحلِ القوَّةِ مُؤذِنٌ بحقِّ الوالدَينِ في إحسانِهم؛ جزاءَ رعايتِهم في مرحلة الصِّبا.

براعةُ التَّعبيرِ بمفردَةِ ﴿أَشُدَّهُۥ﴾:

جميعُ مراحلِ العُمُرِ مشدودةٌ إلى مرحلةِ الأشُدِّ؛ تطلُّعًا إليها في البداياتِ، وتحسُّرًا عليها في النِّهايات

عبَّرَ النَّظمُ الحكيمُ بمفردَةِ ﴿أَشُدَّهُۥ﴾ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾؛ لأنَّ الأشُدَّ يدلُّ على قوَّةِ الإنسانِ[4]، وهو مشتقٌّ من الشَّدِّ، وهو التَّوثُّق، وهوَ مبلغُ الحُنْكَةِ والمعرفةِ[5]، وقد آثَرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالأشُدِّ؛ لما فيه من الدَّلالاتِ المتكاثفَةِ، والاتِّساعِ الزَّمَنِيِّ في بلوغِ القوَّةِ بما هو معهودٌ في الاختلافِ بين النّاسِ في زمنِ بلوغِها، فالأشُدُّ هو أن يكونَ الإنسانُ في مرحلةٍ شُدَّت إليها جميعُ المراحل، فمَراحلُ بدايات العُمُرِ مشدودةٌ إلى مرحلةِ الأشُدِّ،

(1) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 424.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 31.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بلغ).
(4) الرّاغب، مفردات القرآن: (شدد).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (شدد).

وما بعدها في حنينٍ لها، فهي كقِمَّة جبلٍ، مَن بلغها؛ فعليه أن ينزل عنها، والإنسانُ في صُعودِه ناظرٌ إليها، وفي نزولِه مستحْضِرٌ جمالَها، وهذا حالُ الدُّنيا مع الإنسانِ، فعليه أن يُدرِكَ أنَّه ما بين مرحلة الصُّعودِ ومرحلةِ الهبوطِ ومرحلةِ القِمَّة بارقةٌ سريعةٌ، وفيها يقع الشُّكرُ، ويحسُن التَّطلُّع إلى ما هو خيرٌ منها، وهو عمل الصّالحات، والإصلاحُ في الذُّرّيّات.

دلالةُ عَطفِ ﴿وَبَلَغَ﴾ على ﴿بَلَغَ﴾:

مرحلةُ الأربعين هي قِمَّة مرحلة الأشُدِّ

في قولِه تعالى: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ عطفَ البيانُ القرآنيُّ الفعلَ (بلغَ) الثّاني، على الفعلِ الأوَّلِ في جملة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾، وقد ذهبَ فريقٌ: إلى أنَّ المرادَ بذِكْرِ الفعلِ (بَلَغَ) مَرَّةً أخرى تأكيدُ الفعلِ الأوَّلِ، وذهبَ فريقٌ: إلى أنَّ بلوغَ الأربعينَ غيرُ بلوغِ الأشُدِّ، والظّاهِرُ ضَعفُ قَوْلِ مَن قالَ: بُلوغُ الأشُدِّ أربَعونَ؛ لِعَطفِ ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾، والعَطفُ يَقتَضي التَّغايُرَ، والتَّأسِيسُ أولى مِنَ التَّأكيدِ، وبُلوغُ الأربَعينَ اكتمالُ العَقلِ لِظهورِ الفَلاحِ[1]، ومرحلةُ الأشُدِّ أوسع دائرةً من مرحلةِ الأربعين، أي: إنَّه في حالِ بلوغِه الأشُدَّ، وهي الَّتي تبدأُ قبل الأربعين، وتنتهي بعد الأربعين بحسب طبيعةِ الإنسان واكتمالِه العقليِّ، والعِلميِّ، والبَدَنيِّ، ومرحلة الأربعين واضحةٌ ظاهرةٌ، وهي الَّتي يشتركُ فيها معظمُ النّاس، فإذا بلغ الأشُدَّ الذي يكون قبلَ الأربعين بقليلٍ أو كثيرٍ، قال ما قال، وكذلك إذا بلغ الأربعين؛ قال ما قال، فالقولُ ممتدٌّ في زمن مرحلةِ الأشدِّ، وعند بلوغ الأربعين، وتظهرُ بلاغةُ العطفِ في كونِه عطفَ الأضيق دائرةً على الأوسع دائرةً، فدلَّ ذلك على أنَّ الأربعين هي أبلغُ مراحلِ الأشُدِّ عند النّاس.

توجيهُ تخصيصِ سِنِّ الأربعينَ بالذِّكرِ:

خصَّ النَّظمُ الحكيمُ سِنَّ الأربعينَ بالذِّكْرِ؛ لأنَّهُ لَمّا كانَت أيّامُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 440.

الصِّبا والشَّبابِ، وإن كانَت صَفوَةَ عُمرِ الإنسانِ، وأوقاتَ لَذاذَتِه، ومُجتَمَعَ شَملِه وراحاتِه، فيها يَظهَرُ لَهُ سِرُّ عُمرِهِ في الغالِبِ؛ لِغَلَبَةِ الأنفُسِ الخَبيثَةِ عليه البَهيميَّةِ والسَّبُعِيَّةِ لِما يَحمِلانِه عليه مِن نَتائِجِ الشَّهَواتِ ونَوازِعِ الغَضَبِ والبِطالاتِ؛ عَبَّرَ بِما يَدُلُّ على القَحْطِ والشُّؤمِ والضِّيقِ؛ تَنْبيهًا عَلى ذَلِكَ، فَقالَ شارِحًا للاستِواءِ، ومُعَبِّرًا عَنْهُ: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾، فاجتَمَعَ أَشُدُّهُ، وتَمَّ حَزْمُهُ وجِدُّهُ، وزالَت عَنهُ شِرَّةُ الشَّبابِ وطَيْشُ الصِّبا ورُعونَةُ الجَهْلِ، ولِذَلِكَ كانَ هَذا السِّنُّ وقْتَ بِعْثَةِ الأنبياءِ في الغالِبِ الأعمِّ، وهو يُشْعِرُ بِأنَّ أوْقاتَ الصِّبا أخَفُّ في المُؤاخَذَةِ مِمّا بَعْدَها، وكَذا ما بَينَ أوَّلِ الأشُدِّ والأربَعِينَ[1].

سِنُّ الأربعينَ سِنُّ التَّمامِ والحِكْمَةِ ورصانَةِ الفكرِ والاعتبارِ بما مضى من العُمرِ

نُكتَةُ استعمالِ ﴿سَنَةً﴾ دونَ (عام):

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ استعملَ النَّظمُ الكريمُ مفردةَ ﴿سَنَةً﴾ دونَ مفردةِ (عام)، والأصلُ أنَّ العامَ والسَّنَةَ يُطلقانِ على زمنٍ واحدٍ من حيثُ عددُ الشُّهورِ، غيرَ أنَّ العربَ تَستعملُ كلمة (العام)؛ إذا كانَ عامَ رخاءٍ في العيشِ والحياة، وتطلقُه كذلكَ على الزَّمنِ المُستقبلِ المجهولِ على سبيلِ التَّفاؤلِ بأن يكونَ أيضًا عامَ رَخاءٍ، وأمّا السَّنَةُ؛ فإنَّهُم يَستعملونَها في زمنِ القَحْطِ والمَجاعَةِ، بل توسَّعوا في ذلكَ حتَّى سَمَّوا القَحْطَ سَنَةً، من بابِ إطلاقِ المَحَلِّ وإرادَةِ الحالِ[2]، وعلى هذا فإنَّ استعمالَ البيانِ القرآنيِّ الحكيمِ لِلَفظِ ﴿سَنَةً﴾ تُرادُ بِهِ الإشارةُ إلى ما لقيَه الإنسانُ في عُمرِه من المصائبِ والآلامِ ما جعله يُشعرُ بما قاسَتْهُ أُمُّهُ، وما لاقاهُ أبوهُ في سبيلِه، حين بلغوا ما بلغوا من سنواتِ الحياة، ولا تخلو الحياة من كَدَرٍ ومشقَّةٍ ونَصَب.

الإشارةُ إلى ما يُلاقيه الإنسانُ في حياتِهِ مِنَ المشاقِّ والمصاعِبِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 146.

(2) الرّاغب، مفردات القرآن، وابن منظور، لسان العرب: (سنة).

دلالةُ حذفِ أداةِ النِّداءِ في قوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾:

الإشعارُ بقُربِ المُنادَى مِنَ المُنادِي والأُنسِ بِهِ

حُذِفت أداةُ النِّداء في قولِ اللهِ تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾، فلم يقل: (قال: يا ربِّ)، وقد كَثُرَ حَذْفُ (يا) في نداءِ الرَّبِّ في القُرآنِ، وعلَّة ذَلِك أنَّ في حذف (يا) من نِداء الرَّبِّ تعالى معنى التَّعظيم لَهُ والتَّنزيه، وذَلِكَ أنَّ النِّداءَ فِيهِ طرفٌ من معنى الأمرِ؛ لأنَّك إذا قلت: (يا زيد)؛ فَمَعْناه: (أدْعوك يا زيد)؛ فحُذِفتَ (يا) من نِداء الرَّبِّ؛ ليزولَ معنى الأمرِ، وينْقُصَ؛ لأنَّ (يا) تُؤكِّده، وتُظْهِر مَعْناهُ، فَكَثُرَ حذفُها في القُرآن لذَلِك المَعْنى[1]، مع ما فيه من الإشعارِ بالقُربِ، وأُنسِ المُنادِي بالمُنادَى تعالى؛ إذ هو يتضرَّعُ لهُ بالإنعام بالقَبولِ والبَركةِ.

بلاغةُ اختيارِ مُفردةِ ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾:

الوَزْعُ سؤالُ اللهِ أن يُلهِمَ الإنسانَ الشُّكْرَ، وأن يَكفَّهُ عَن نَوازِعِ الكُفرِ

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بمفردةِ ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾؛ لما فيها من الدَّلالَةِ على معَنى الإلهام والحضِّ، تقولُ: أوزَعَ اللهُ فُلانًا الشُّكرَ: ألهَمَهُ إيّاهُ، ويُقالُ هوَ مَن أوزِعَ بالشَّيءِ؛ إذا أولِعَ به، كَأنَّ اللهَ يولِعُهُ بِشُكْرِهِ[2]، فأفادَ التَّعبيرُ بِهِ شِدَّةَ التَّضرُّع للهِ تعالى، فكأنَّهُ قالَ: يا ربِّ كُفَّني عنِ الأشياء إلّا عَن شُكرِ نِعْمَتك، وكُفَّني عمّا يُباعدُني عَنْك[3]، وأولعني ذَلِكَ، واجعلني بحيثُ أزَعُ نفسي عن الكُفْرانِ[4]، فدلَّ التَّعبيرُ بِهِ على طَلَبِ العَوْنِ مِنَ اللهِ عَلى زِيادَةِ الإحْسانِ إلَيهما، بأن يُلْهِمَهُ الشُّكْرَ عَلى نِعَمِهِ عليه وعلى والِدَيْه، ومِن جُمْلَةِ النِّعَمِ عَلَيهِ أن ألهَمَهُ الإحسانَ لِوالِدَيه، ومِن جُمْلَةِ نِعَمِهِ على والِدَيْهِ أن سَخَّرَ لَهُما هذا الوَلَدَ لِيُحْسِنَ إلَيْهِما، فَهاتانِ النِّعْمَتانِ أوَّلُ ما يَتَبادَرُ عَن عُمومِ نِعمَةِ اللهِ عَلَيهِ وعلى والِدَيهِ[5].

(1) مكّي بن أبي طالب، مشكل إعراب القرآن: 1/ 285.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وزع).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وزع).
(4) الرّاغب، مفردات القرآن، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (وزع).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 32.

غَرَضُ التَّعبيرِ بصيغَةِ الدُّعاء:

تجدُّدُ الشُّكْرِ مِنْ علاماتِ صدقِ الالتجاءِ إلى اللهِ

جاءَ الفعلُ ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ بصيغة الدُّعاء؛ للدَّلالَةِ على تجدُّدِ الطَّلبِ منَ اللهِ، والحرصِ على استمرارِ الإلهامِ بالشُّكرِ، فكأنَّهُ يقولُ: يا ربِّ ألهمْنِي المرَّةَ تلوَ المَرَّةِ أن أشكرَ نِعْمَتَكَ، فلا أفترُ أبدًا، بل تكونُ حياتي كلُّها مَعلَمًا منْ معالمِ شكركَ وحمدكَ.

دلالَةُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَنْ﴾ والفعلِ دونَ المَصْدَرِ الصريح:

إظهارُ تجدُّدِ الامتنانِ والعِرفانِ سبيلُ ذوي الفضلِ والإحسانِ

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ باستعمالِ المصدرِ المؤوَّل دونَ المصدرِ الصَّريح؛ وذلكَ لما في التَّعبيرِ بالمَصدرِ المُؤَوَّلِ مِنَ الدَّلالَةِ على الاستقبالِ والزَّمَنِ، وعَدَلَ عَنِ المَصْدَرِ الصَّريحِ، فَلَم يقلْ: (ربِّ أوزِعني شُكْرَ نِعْمَتِكَ)؛ لِدلالَتِه على الحَدَثِ فحسب دونَ الزَّمَنِ[1]، فأفادَ تجدُّدَ الشُّكرِ وإظهارَ الامتنانِ للهِ ﷻ على ما أولاه من نِعَمٍ.

بلاغَةُ استعمالِ مُفْرَدَةِ الشُّكرِ دونَ رَديفاتِها:

إذا شُكِرَتِ النِّعمةُ؛ قَرَّتْ، وإن كُفِرَت؛ فَرَّت

آثرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بمفرَدَةِ الشُّكْرِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ دونَ رَديفاتِها كالمدحِ والحمد والإطراءِ وغيرِها؛ وذلكَ أنَّ الشُّكرَ فيهِ تَصَوُّرُ النِّعمَةِ وإظهارُها، ويُضادُّهُ الكُفْرُ، وهوَ: نِسيانُ النِّعمَةِ وسَتْرُها، فالشُّكْرُ على هذا هوَ الامتلاءُ من ذِكرِ المُنْعِمِ عليه[2]، والشُّكرُ يدخُلُ فيه شُكرُ اللِّسانِ والجَنانِ والأبدان، ففي استعمالِ مفردةِ الشُّكرِ دلالَةٌ على ما ينبغي أن تفيضَ بِهِ نفسُ المؤمنِ من عرفانٍ للهِ تعالى على ما أنعمَ بهِ من نِعَمٍ جليلَةٍ، ويُترجمُ ذلك بلسانِه وبجوارحه، وعليه فيتضمَّنُ الدُّعاءُ أن ينطقَ المسلمُ بالشُّكرِ، ويُتبعَه العملَ والاعترافَ القلبيَّ، ولا يكون الشُّكر بأحدِهما دون بقيَّتها، وهو ترجمان الإيمان الشَّرعيِّ.

(1) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 147.
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (حسن).

فائِدَةُ إفرادِ النِّعمةِ دونَ جَمْعِها:

النِّعمةُ الواحدةُ تحوي في طيّاتِها نِعَمًا كثيرةً

جاءَ النَّظمُ الجليلُ بكلمةِ ﴿نِعْمَتَكَ﴾ بصيغَةِ الإفرادِ دونَ الجمعِ، رغم صلاحيَّةِ السِّياقِ للجمعِ، فكان من الممكنِ أن يكونَ النَّظْمُ: (ربِّ أَوْزِعْنِي أنْ أشكرَ نِعَمَكَ الَّتي أنعمتَ عليَّ)، وإنَّما عدَلَ عنَ الجمعِ؛ لأنَّ النِّعمةَ هنا اسمٌ أُقيمَ مقامَ المَصدرِ، يُقالُ: (أنعَمَ اللّٰهُ عليه، يُنعِمُ إنعامًا ونِعمَةً)، فأُقيمَ الاسمُ مقامَ الإنعامِ، كقولهم: أنْفقتُ عليه إنفاقًا ونَفَقةً بمعنًى واحدٍ؛ ولذلك جاءَتْ ﴿نِعْمَتَكَ﴾ بالإفرادِ دون الجمعِ؛ لأنَّه في معنى المصدرِ، وفي الإفرادِ كذلكَ إشارةٌ إلى احتواءِ كُلِّ نعمةٍ عددًا لا حصرَ له منَ النِّعمِ، وفيه دعوةٌ إلى كثرة الشُّكرِ والتَّأمُّلِ فيما أنعمَ اللّٰهُ به علينا مِن نِعَمٍ ظاهرةٍ وباطنةٍ، ومِن هذهِ النِّعَمِ التَّوفيقُ للإحسانِ إلى الوالدَينِ قولًا وفعلًا، وقيل: إنَّ الإفرادَ هاهُنا جاءَ تَعْظيمًا لِلأمرِ، بالإشارَةِ إلى أنَّ النِّعْمَةَ الواحِدَةَ لا يُبْلَغُ شُكْرُها إلّا بِمَعونَةِ اللّٰه، مَعَ أنَّ ذِكْرَ الأبَوَيْنِ يُعْرَفُ أنَّ المُرادَ بها الجِنْسُ[1].

نُكْتةُ إضافةِ النِّعمةِ لِضميرِ العَظَمة:

نعمةُ اللهِ كريمةٌ في ذاتِها عظيمةٌ في مآلاتها

أضافَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ النِّعمَةِ إلى ضميرِ الكافِ العائِدِ على اسمِ الجلالَةِ، في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾؛ للتَّنبيه على إقرارِ الابنِ الصّالِحِ وإذعانِه بأنَّ الَّذي خلقَ النِّعمَ الَّتي يتقلَّب فيها ليلَ نهارَ، هو اللّٰهُ لا أحدَ سواه، وفي الإضافةِ كذلكَ بيانُ أنَّ حقَّ اللّٰهِ تعالى المُنعِمِ عليهِ بهذه النِّعمِ، هو شكرُه، لا شكرَ أحدٍ سواه[2]، هذا فضلًا عمّا في الإضافَةِ من تشريفِ النِّعمة وتكريمها، بما يوجبُ الاعترافَ بفضلِه تعالى، وأنَّ من أبرِّ شُكرِ اللّٰهِ سبحانه الشُّكْرَ بالتَّوحيدِ في العِبادَةِ، كما أنَّهُ يوَحِّدُ بِنِعْمَةِ الإيجادِ والتَّرْزيقِ[3]،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 148.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 340.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 148.

والمرادُ بالنِّعمةِ التي استوزعَ الشُّكرَ عليها هي نعمةُ الإيمانِ ومعرفةُ اللّهِ وتوحيدُه وطاعتُه، وقالوا: هي كلُّ ما أنعمَ اللّهُ به عليهِ وعلَى والدَيهِ من نِعمِ الدُّنيا والدِّينِ، وهذا هوَ الظّاهرُ من إطلاقِ كَلمةِ (النِّعمةِ) وشُمولِها[1].

بلاغَةُ الوصفِ بِالاسمِ الموصولِ:

عظَمةُ النِّعمةِ وشهرتُها، توجبُ مزيدَ الشُّكْرِ والعِرفانِ

وصفَ النَّظمُ الحكيمُ النِّعمَةَ بالاسمِ الموصولِ والفعلِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾؛ وذَلكَ لما في الوصفِ بالاسمِ الموصولِ منَ دلالَةٍ على الشُّهْرَةِ والثَّبات؛ إذ لَمّا كانَ رُبَّما ظَنَّ ظانٌّ أنَّ المُرادَ بِنِعْمَتِه قُدرَتُهُ على الإنعامِ؛ لِيَكونَ المَعْنى: أن أشْكُرَ لَكَ؛ لِكَوْنِكَ قادِرًا على الإنعامِ[2]؛ جاءَ بالاسمِ الموصولِ والفعلِ الماضي لإفادَةِ الثَّباتِ والاشتِهارِ، فهي نِعمةٌ عظيمَةٌ معروفةٌ عند العامِّ والخاصِّ.

دلالةُ التَّقييدِ بالوصفِ ﴿ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ﴾:

تطويلُ المناجاةِ والدُّعاءِ كاشفٌ لِلَذَّةِ الابنِ الصّالِحِ ومسرّتِهِ بِنِعَمِ اللهِ

قيَّدَ النَّظمُ الجليلُ النِّعمَةَ بقولِ اللّهِ تعالى: ﴿ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ﴾، وهو وصفٌ زائدٌ على مقتَضَى الظّاهِرِ، وكان منَ الممكنِ أن يأتي النَّظمُ بدونها، فيكونُ: (رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ عَلَيَّ وعَلَى والِدَيَّ)، ولكِنَّ النَّظمَ الحكيمَ أتَى بِها؛ لما فيها مِن بيانِ الغِبطةِ بالنِّعمةِ، والنَّشوة بتطويلِ الكلامِ، فالعبدُ الصّالحُ والابنُ البارُّ يجدُ لذَّةً في خطابِ ربِّه؛ لأنَّ هذا المقامَ من أعلى المقاماتِ، فلا تجدُ نفسُ المؤمنِ نَشوةً أو غِبطةً ورِضًا ومَسرَّةً أعلَى مِمّا تجدُه عندَ الإحساسِ بأنَّ اللّهَ تعالى خصَّها بنِعمةٍ لا يُنْعَمُ بها إلّا على مَن تَقرَّبوا إليه، فقرَّبَهُم[3]، وعبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بالفعلِ الماضي ﴿أَنْعَمْتَ﴾؛ لإفادةِ التَّحَقُّقِ والثَّباتِ، فهي نعمةٌ عظيمةٌ متحقِّقَةٌ.

(1) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 423.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 148.
(3) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 424 - 425.

معنى حرف الاستعلاءِ ودلالَتُهُ:

استعملَ النَّظمُ الجليلُ حرفَ الجَرِّ ﴿عَلَيَّ﴾ في أصلِ معناهُ، وهوَ الاستعلاءُ، فأفادَ استعلاءَ النِّعْمَةِ على العبدِ الصّالحِ استعلاءً أوجبَ عليهِ الشُّكرَ والعرفانَ والامتنان لخالقِهِ تعالى.

استعلاءُ النِّعمة استعلاءً يوجب الشُّكرَ والعرفان للمُنْعِم

دلالةُ تقييدِ الفعلِ بالجارِّ والمجرورِ:

قيَّدَ النَّظمُ الجليلُ فعلَ الإنعامِ بالجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ﴾؛ وذلكَ لإفادَةِ الاختصاصِ به دونَ غيرِه[1]، أي: اختصاصُ الابنِ الصّالحِ بهذهِ النِّعَمِ، وفي استشعارِ هذا الابنِ بذلك الاختصاصِ حثٌّ لنفسِهِ على مداومَةِ الشُّكرِ.

استشعارُ الاختصاصِ بالنِّعمَةِ أدعَى للحثِّ على الشُّكرِ

دلالةُ العطفِ وبلاغتُه:

عطفَ النَّظْمُ الجليلُ بذكرِ دُعاءِ الابنِ الصّالحِ اللّهَ ﷻ أن يلهمَهُ شكْرَ النِّعْمَةِ الَّتي أنعمَ بها على والديه، بعدَ أن دعاهُ أن يلهمَهُ شُكرَ النِّعمَةِ الَّتي أنعمَ بها عليه؛ وذلكَ لأنَّ اللّهَ تعالى جعل إنعامَهُ على والدَيْهِ بالإيمانِ والتَّقْوى سببًا في الإنعامِ عليه بهما، وجعلَ هدايتَهُما مِن أسبابِ هدايَتِه، فإنَّ صلاحَ الوالدَينِ بالعِلْمِ والعملِ من أعظمِ الأسبابِ لصلاحِ أولادهم[2]، وفي هذا العطفِ تَرَقٍّ بذِكْرِ الفرعِ وعطفِ الأصلِ عليه.

عطفُ الأصلِ على الفرعِ استحضارٌ لأصلِ الهدايةِ والتَّوفيق

نُكْتَةُ إعادةِ حرفِ الاستعلاءِ:

كرَّرَ النَّظمُ الجليلُ حرفَ الجَرِّ في قولِه تعالى: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾؛ لتوكيدِ استعلاءِ النِّعمَةِ على العبدِ الصّالحِ وعلى والديهِ من قبلِه، استعلاءً أوجبَ عليهِ الشُّكرَ والعرفانَ، فالنِّعمة نازلةٌ على الفرعِ والأصلِ على حدٍّ سواء.

توكيدُ استعلاءِ النِّعمَةِ على العبدِ الصّالحِ وعلى والِديهِ ممّا يوجب الشُّكرَ والعرفانَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 148.

(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 781.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالوالدِيَّةِ في سياقِ الدُّعاءِ:

تغليبُ جانبِ الوالدَةِ تأكيدٌ لتقدُّمِ أهمّيَّةِ برِّها

آثرَ البَيانُ القرآنيُّ الحكيمُ استعمالَ عُنوانِ الوالديَّةِ دونَ الأبويَّةِ، فقال: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾؛ وذلكَ لأنَّ مِن دِقَّةِ النَّظمِ الكريمِ تغليبَ جِهَةِ الأمِّ - الَّتي تَلِدُ حقيقةً - في المواضعِ الَّتي تستدعي البِرَّ والشَّفَقةَ أكثرَ من غيرِها، ويكونُ المرادُ فيها توجيهَ العنايةِ للأمِّ أكثرَ من الأبِ، ويُلْحَقُ بها الأبُ تَغْليبًا، الَّذي يُسَمَّى (والِدًا) مجازًا لا حقيقةً، ومِن عادتِه كذلكَ أن يستعملَ لفظَ (الأبوين) في المواضعِ الَّتي يكونُ المرادُ فيها توجيهَ العنايةِ للأبِ أكثرَ مِنَ الأمِّ الّتي تُسمَّى (أبًا) مجازًا، وتُلحقُ بالأبِ تَغْليبًا[1]، وفي هذا الموضعِ دعاءٌ بإلهامِ الوفاءِ والشُّكرِ، واستعطافٌ بأضعفِ الطَّرَفينِ، وهي الوالدةُ، لبالغِ حقِّها على الأبناءِ.

غَرضُ تقديمِ ﴿عَلَيَّ﴾ علَى ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾:

الشُّكرُ للوالدَين طريقٌ شكرُ الابنِ لنفسِه

قَدَّمَ النَّظمُ الحكيمُ قيدَ ﴿عَلَيَّ﴾ على ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾؛ لتضمُّنِ شُكرِ الابنِ شكْرَ الوالدَينِ؛ لجوازِ نيابَةِ الابنِ عن أبويهِ في هذا الشُّكرِ؛ إذْ حاصلُ المَعْنى: أنَّ اللهَ أمَرَ بالإحْسانِ إلى الوالِدَيْنِ في المُشاهَدَةِ والغَيْبَةِ، وبجَميعِ وسائلِ الإحسانِ الَّذي غايَتُهُ حُصولُ النَّفْعِ لَهُما، وأنَّ اللهَ لَمّا أمرَ بالدُّعاءِ لِلأبَوينِ وعَدَ بإجابَتِه عَلى لِسانِ رَسولِهِ ﷺ، لِقَوْلِه: «إذا ماتَ الإنسانُ؛ انقَطَعَ عَنهُ عَمَلُهُ إلّا من ثلاثةٍ، إلّا من صَدَقَةٍ جارِيَةٍ، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ به، أو ولَدٍ صالِحٍ يَدعو لَهُ»[2]، وما شُكْرُ الوَلَدِ رَبَّهُ على النِّعْمَةِ الَّتي أنْعَمَها اللهُ عَلى والِدَيهِ إلّا من بابِ نِيابَتِه عَنْهُما في هَذا الشُّكْرِ، وهو من جُمْلَةِ العَمَلِ الَّذي يُؤَدِّيهِ الوَلَدُ عن والِدَيْه، فشُكرُ الولدِ الصّالحِ يلحقُه، ويَلحقُ والدَيه، فهو هنا شَكَرَ نعمةَ الهداية لوالديه مرَّةً بالجملةِ، وهي الأولى، ومرَّةً بالتَّفصيلِ،

(1) عبد العظيم المطعني، خصائص التّعبير القرآنيّ وسماته البلاغيّة: 1/ 283، و286.
(2) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (4310).

وهي الثّانية، وقدَّم نفسَه؛ لأنَّ المقامَ يقتضي ذلك، فلولا أنَّه قدِ اهتَدى؛ لما شكَرَ لوالدَيْه.

بَلاغةُ عطفِ ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ﴾ علَى ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾:

عَطَفَ النَّظمُ الحكيمُ قولَهُ تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ على قولِهِ تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ بالواوِ؛ لما بينَهُما مِنَ التَّوَسُّطِ بينَ الكمالين: كمالِ الاتِّصالِ وكمالِ الانقطاعِ، وذلكَ أنَّ حديثَ الابنِ الصّالِحِ ما زالَ موصولًا، فَهو مسترسِلٌ في مناجاتِهِ لربِّهِ بالدُّعاءِ، ومن ناحيةٍ أُخرى، فهناكَ مغايرةٌ بينَ هذهِ الجملةِ وسابقتِها في العمومِ والخصوصِ، فَيَكونُ قَد طَلبَ جَعْلَهُ مُداومًا على العَمَلِ الصّالِحِ أيضًا، وكَأَنَّهُ أرادَ بالشُّكْرِ الشُّكْرَ باللِّسانِ المُستَلْزِمَ لِلشُّكرِ بالجَنانِ، وأرْدَفَهُ بما ذُكِرَ تَتميمًا لَهُ؛ لأنَّ العَمَلَ الصّالحَ شُكْرٌ بالأركانِ، وقيل: الأوَّلُ خاصٌّ، وهو شُكْرُ النِّعْمَةِ، والثّاني عامٌّ، وهو عَمَلُ الصّالحات[1]، وقد أفادَ العطفُ الدُّعاءَ بأنْ يكونَ شديدَ الحبِّ للعملِ الصّالحِ والولَعِ بِه، فكما أنَّ كلمةَ: ﴿أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ معناها: ألهمْني شُكرَك، واجعلني مولَعًا بِهِ مُحبًّا لَه مُقبلًا عليه، كذلك صارَ الحالُ مع العملِ الصّالحِ الَّذي يرضاه ربُّه، فهو لَم يطلب أنْ يعملَ عَملًا صالحًا فقط، وإنَّما أن يكونَ محبًّا للعمل الصّالح مولَعًا به، مُنَفِّذًا أمرَ اللّه فيه، ليسَ على وجهِ التَّكليفِ الَّذي يتطلَّب منّا الصَّبرَ، وإنَّما يدعو الابنُ الصّالِحُ أن يُنَفِّذَ أمرَ اللّه فيه بموفورِ رَغْبَةٍ، وموفورِ حُبٍّ، وموفورِ نشاطٍ[2].

الشُّكرُ باللِّسانِ مستلْزِمٌ لِلشُّكرِ بِالجَنانِ، والعَمَلُ الصّالِحُ شُكْرٌ بِالأركانِ

دلالةُ الإسنادِ إلى مفردٍ دون الجَمْعِ:

أفردَ النَّظمُ الجليلُ فعلَ ﴿أَعْمَلَ﴾ بإسناده إلى المُتكلِّم المفردِ دونَ الجمْعِ، فلم يقلْ: (وأنْ نَعْملَ)؛ وذلكَ لأنَّ هذا هو مقتضى الظّاهر،

عـمـلُ الابـنِ الصّالِحِ في ميزانِ أعمالِ والِدَيهِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 176.

(2) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 425 - 426.

فسبَقَ ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾، و﴿أَشْكُرَ﴾، كما أنَّ عَمَلَهُ داخلٌ في عملِ والديهِ كليهما، فالولَدُ من كسبِ أبيه وأُمِّه، فعملُ الأبناءِ يصلُ الآباءَ، فضُمِّن عملُ الابنِ ما يعودُ على الوالدَينِ بالأجرِ؛ فكأنَّما دعا بالتَّوفيقِ لأن يعملَ صالحًا ينالُ به الأجر، ويصلُ إلى والدَيه.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِـ﴿أَعْمَلَ﴾ دونَ (أفعلَ):

في التَّعبيرِ بالعَمَلِ قَصدِيَّةٌ ومُثابَرَةٌ، وامتِدادُ زَمانٍ

آثَرَ النَّظمُ الحَكيمُ التَّعبيرَ بِـ(العَمَلِ) دونَ (الفِعْلِ)، وسِرُّ ذَلكَ: أنَّ العملَ أخصُّ مِنَ الفعلِ، فَكُلُّ عملٍ فِعلٌ، ولا يَنْعَكِسُ[1]، وهَذا يَحْمِلُ قَصْدِيَّةَ العملِ والتَّوجُّهَ إلَيه؛ لأنَّ فِيهِ امتِدادَ زمانٍ؛ إذ كانَ المَقصودُ المُثابَرَةَ عليه لا الإتيانَ بِهِ مَرَّةً أو بِسُرْعَةٍ[2]، ومِن ثَمَّ ينبغِي على المؤمنِ البارِّ أن يكون هذا حالَهُ مع ربِّه؛ بأنْ يسألَ اللهَ أن يجعلَ عَمَلَ الصّالِحاتِ بقصدٍ، وأن يكونَ عملُهُ للّه تعالى.

عِلَّةُ حَذْفِ المَوصوفِ:

العنايةُ بتحصيلِ الصّالحاتِ باعتبارِها صالحاتٍ

في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ حَذَفَ النَّظْمُ الجَليلُ المَوصوفَ، وتقديرُهُ: (وأنْ أعملَ عَملًا)، وأبْقَى الصِّفَةَ، وهِيَ: ﴿صَٰلِحًا﴾ للإيجازِ، إذِ الفِعْلُ دالٌّ على تَقديرِ مَصْدَرِهِ[3]، ثُمَّ إنَّ إقامَةَ الصِّفَةِ ﴿صَٰلِحًا﴾ مَقامَ الموصوفِ تُشعِرُ بِأنَّ الموصوفَ، وهو (العملُ)، حاضِرٌ لا غائِبٌ، فالصّالِحاتُ هي همُّ الابنِ الصّالِحِ الَّذي لا يَتحوَّلُ، ولا يَتَغَيَّرُ، كَما أنَّ الاهتمامَ يَنصَبُّ في المَقامِ الأوَّلِ على صِفةِ الصَّلاحِ في العملِ، فليسَ كُلُّ عَمَلٍ يُدْخِلُ الجَنَّةَ، فاكتَفَى البَيانُ القُرآنيُّ بِالصِّفَةِ لِبالِغِ أهَمِّيَّتِها، وأنَّ التَّجرُّدَ في الدُّعاءِ كان لَها.

سِرُّ اختِيارِ ﴿صَٰلِحًا﴾ دونَ مُرادفاتِها:

العملُ الصّالحُ خَيرٌ مُتمحِّضٌ للآخرةِ

آثَرَ البَيانُ القُرآنيُّ التَّعبيرَ بِلَفْظِ ﴿صَٰلِحًا﴾ دونَ صِفة (خَيِّرًا)؛

(1) الخازن، لباب التّأويل في معاني التّنزيل: 1/ 58.
(2) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/ 487.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 317.

وذلكَ لأنَّ الأعمالَ الصّالِحاتِ تَضُمُّ في ثَناياها الأعمالَ الخَيِّراتِ، وتَختَصُّ بالأفعالِ، أمّا الخَيْراتُ؛ فَقد يَشوبُها طلبُ خيرِ الدُّنيا، بخلاف العملِ الصّالح، فهو مُتمحِّضٌ للآخرةِ، ولذلك كانَ الأنسبُ والأبينُ عن المرادِ هو وصف الصّالح.

نُكْتَةُ الوصفِ بُجملةِ ﴿تَرْضَىٰهُ﴾:

تلقّي العملِ الصّالِحِ بالقَبولِ بتَجدُّدِ الإقبالِ عليه

وَصَفَ النَّظمُ الحكيمُ العملَ الصّالِحَ الَّذي دعا بهِ الابنُ البارُّ بالجملةِ الفعليَّة ﴿تَرْضَىٰهُ﴾، فلم يقل: (صالحًا مرضيًّا)، وهي صِفَةٌ مُؤَكِّدَةٌ أو مُخَصِّصَةٌ؛ إن أُريدَ بهِ كَمالُ الرِّضا، واختيرَ كَوْنُهُ صِفَةً مُخَصِّصَةً، والمُرادُ بالرِّضا القَبولُ، وهو لَيسَ من لَوازِمِ العَمَلِ الصّالِحِ أصلًا، لا عَقْلًا ولا شَرْعًا[1]، ونُكْتَةُ التَّعبير بالفعليَّةِ: الدَّلالةُ على تجدُّدِ العملِ الصّالحِ من العبدِ الصّالح، وهو على الدَّوام يرتضيه اللّٰهُ تعالى.

دلالةُ عطفِ ﴿وَأَصْلِحْ﴾ على ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾:

بعدَ الدُّعاءِ للأصولِ جاءَتِ التَّتِمَّةُ بالدُّعاءِ للفروعِ

عَطَفَ النَّظمُ الحكيمُ قولَهُ تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ على قولِهِ تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ بالواوِ؛ لما بينهما مِنَ التَّوَسُّطِ بينَ الكمالين: كمالِ الاتِّصالِ وكمالِ الانقطاعِ؛ إذ ما زال الحديثُ موصولًا للابنِ الصّالح، وهو مسترسِلٌ في مناجاةِ ربِّهِ بالدُّعاء، ومن ناحيةٍ أخرى، فثَمَّةَ مغايرةٌ بينَ هذهِ الجملةِ وسابقتِها، ذلكَ أنَّهُ لَمّا دَعا لِنَفسِهِ بَعْدَ أن أوصى برِعايَةِ حَقِّ أُمِّهِ وأبيهِ؛ لَقَّنَهُ سُبْحانَهُ الدُّعاءَ لِمَن يَتَفَرَّعُ مِنهُ؛ حَثًّا عَلى رِعايَةِ حُقوقِهِم لِئَلّا يُسَلِّطَهم على عُقوقِهِ[2]، وأشارَ بعضُهم إلى أنَّ ما ذُكِرَ مِنَ الدُّعاءِ لِذُرِّيَّتِهِ استِطرادٌ في أثناءِ الوِصايَةِ بالدُّعاءِ لِلوالِدَينِ بألّا يَغْفُلَ الإنسانُ عَنِ التَّفَكُّرِ في مُستَقبَلِه، بأن يَصرِفَ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 176.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 176.

عِنايَتَهُ إلى ذُرِّيَّتِه، كَما صَرَفَها إلى أبوَيهِ؛ لِيَكونَ لَهُ مِن إحسانِ ذُرِّيَّتِهِ إلَيهِ مِثلُ ما كانَ مِنهُ لأبَويه، وإصلاحُ الذُّرِّيَّةِ يَشْمَلُ إلهامَهُمُ الدُّعاءَ إلى الوالِدِ[1].

نوعُ الجِناسِ وبلاغتُه:

تمامُ التَّناغُمِ بينَ العملِ الصالِحِ والذُّرِّيَّةِ الصّالحَةِ

بين كلمتي ﴿صَٰلِحًا﴾ و﴿وَأَصْلِحْ﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ جناسٌ مغايرٌ[2]؛ لأنَّ إحدى الكلمتين اسمٌ، والأُخرى فِعلٌ[3]، فأشارَ هذا الجِناسُ إلى تمام التَّناغُم بين العملِ الصّالِحِ والذُّرِّيَّةِ الَّتي يُصلحُها اللهُ تعالى؛ إذ هي ثمرةٌ لهذا الدُّعاءِ المباركِ بعدَ إرادَةِ اللهِ ومشيئَتِه تعالى، وكلاهما مشتقٌّ من (صلح)، فهو جناس اشتقاق.

بلاغةُ الكنايةِ بذِكرِ قيدِ ﴿لِي﴾:

التَّعرُّضُ لنفحاتِ اللهِ من دَيدَنِ الألِبّاءِ الأذكياءِ

جاءَ البيانُ القرآنيُّ بتقييد فعل (أَصْلِحْ) بالجارِّ والمجرورِ ﴿لِي﴾، ونُكْتَتُه: أنَّهُ بعدَ أن أشارَ إلى نِعمِ اللهِ عليه وعلى والدَيه، تعرَّضَ إلى نفحاتِ الله، فسألَهُ إصلاحَ ذُرِّيَّتِه، وعرَّض بأنَّ إصلاحَهم لفائدتِه، وهذا تمهيدٌ لبساطِ الإجابةِ، كأنَّه يقولُ: كما ابتدأتَني بنعمتِك، وابتدأتَ والِدَيَّ بنعمتِك، ومتَّعتَهُما بتوفيقي إلى برِّهما؛ كَمِّلْ إنعامَك بإصلاحِ ذُرِّيَّتي، فإنَّ إصلاحَهم لي، وهذه ترقياتٌ بديعةٌ في درجات القُرْبِ[4]، كما أنَّ في ذكرِ ﴿لِي﴾ إشعارًا بطلبِ الخصوصيَّة، والتَّقرُّب إلى اللهِ تعالى بحُسْنِ أدبٍ، فهي إيماءٌ كنائيٌّ عن جَعْلِ الذُّرِّيَّة صالحةً لأجلِه.

براعةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفِيَّةِ (في):

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ جاء ذِكْرُ حرفِ الظَّرفيَّةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 32.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 27/ 90.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 4/ 428.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 34.

(في)، والأصلُ أنَّ الفعلَ (أصلح) يتعدَّى بنفسه، كما في قولِه تعالى: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: 90]، فالأصلُ أن تكونَ الجملةُ: (وَأصلحْ لي ذُرِّيتي)، ولكنَّ النَّظْمَ الحكيمَ أرادَ أن يَجعلَ ذُرِّيَّتَهُ مَوْقِعًا للصَّلاحِ ومَظِنَّةً لَهُ، فكأنَّهُ قالَ: هَبْ لِيَ الصَّلاحَ في ذُرِّيَّتِي، فَأوقِعهُ فِيهِم[1]، أو ضَمَّنَ قولَهُ: ﴿وَأَصْلِحْ لِى﴾ مَعْنى: (والطُفْ بِي في ذُرِّيَّتِي)[2]، فيكون الإصلاحُ ساريًا وراسخًا فيهم، بحيثُ يتمكَّن فيهم تمكُّنَ المظروفِ في الظَّرفِ[3]، وهذا أبلغُ من أن يُقال: (وأصلح لي ذُرِّيَّتي)؛ ذلك أنَّه طلبَ أن يُصلح في ذُرِّيَّته؛ ليكونَ الصَّلاحُ مستمرًّا فيها، ولو قال: (أصلح لي ذُرِّيَّتي)؛ لَلَزِمَ الذُّرِّيَّة المباشرة.

الدُّعاءُ بتمكُّنِ الصَّلاحِ في الذُّرِّيَّةِ استمرارٌ فيها، لا متوقِّفٌ على الذُّرِّيَّة المباشرة

بلاغةُ استعمالِ مُفردَةِ الذُّرِّيَّةِ:

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ آثرَ النَّظمُ الجليلُ استعمالَ مفردَةِ الذُّرِّيَّةِ، دونَ مفردَةِ (الأبناء)؛ وذلكَ لأنَّ مفردةَ (الذُّرِّيَّةِ) يُرادُ بها كلُّ أولادِ الرَّجلِ الذُّكورِ والإناثِ، وكلُّ أولادِ بنيه وبناته من الذُّكورِ والإناثِ، وما نزلَ من أبناء الأبناء والبنات، بدليل أنَّ اللّه تعالى قال عن إبراهيمَ عليه السلام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنعام: 84]، ثمّ عَدَّ عيسى عليه السلام مَع المَذكورينَ، وقد آثرَ البيانُ القرآنيُّ مفردَةَ الذُّرِّيَّةِ لعمومِ ما تدلُّ عليه من أبناءِ الذُّكورِ والإناثِ وما نَزَل منهما، فكما كان الابنُ الصّالحُ بارًّا بوالديه في دعائِه، كان بارًّا بأبنائِه وبناتِه جميعًا، وهكذا ينبغِي أن يكونَ دعاءُ الصّالحينَ عامًّا؛ ليصلَ إلى أبعد ما يكون في الذُّرِّيَّة، كما كان لإبراهيمَ عليه السلام، وهذا من فقه الدُّعاءِ، والحرص على الأجر العظيمِ والخيرِ العميم.

الذُّرِّيَّةُ تشملُ كلَّ أبناء الأبناءِ وبناتِهم

بَديعُ فَنِّ الإدماجِ بذِكْرِ الدُّعاءِ للذُّرِّيَّةِ:

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ دعا العبدُ الصّالحُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 302.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 441.
(3) محيي الدّين شيخ زاده، حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاويّ: 7/ 560.

البارُّ بوالدَيْهِ لذُرِّيّتِهِ من بعدِه أثناءَ دُعائِه لنفسِه ولوالديه، وفي إدماجِ تَلْقِينِ الدُّعاءِ بإِصْلاحِ ذُرِّيَّتِهِ - مَعَ أنَّ سِياقَ الكَلامِ في الإحسانِ إلى الوالِدَيْنِ - إيماءٌ إلى أنَّ المَرءَ يَلْقى مِن إحسانِ أبنائِهِ إلَيهِ مِثلَ ما لَقِيَ أبَواهُ مِن إحسانِهِ إلَيهِما، ولأنَّ دَعوَةَ الأبِ لابنِهِ مَرْجوَّةُ الإجابَةِ[1]، ففي حَديثِ أبي هُريرَةَ ﷺ عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «ثلاثُ دَعَواتٍ مُستَجاباتٌ لا شَكَّ فيهِنَّ: دَعوَةُ الوالِدِ، ودَعوَةُ المُسافِرِ، ودَعوَةُ المَظلومِ»[2].

كما يُحسِنُ الابنُ إلى أُمِّهِ وأبيهِ، يُحسِنُ أبناؤُهُ إليهِ

عِلَّةُ فصلِ جُملةِ: ﴿إِنِّي تُبْتُ﴾:

فصلَ البيانُ القرآنيُّ قولَ اللهِ تعالى: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ عن الجُمَلِ السّابِقَةِ عليهِ؛ لما بينها مِن شِبهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ وذلكَ أنَّ التَّوْبَةَ مِن شروطِ قَبولِ الدُّعاءِ، فكأنَّ ثَمَّةَ سؤالًا مقدَّرًا، فحواه: إن كنتَ ترجو قبولَ دعائِكَ؛ فإنَّ التَّوبَةَ من شروطِ القَبولِ، فهل تبتَ إلى اللهِ؟ فجاءتْ جملةُ: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾؛ للتَّعليلِ لِلمَطلوبِ بالدُّعاءِ تَعليلَ تَوَسُّلٍ بِصِلَةِ الإيمانِ والإقرارِ بالنِّعْمَةِ والعُبودِيَّةِ[3]، وفي فصلِ هذه الجملةِ عن سابقتها بيانٌ للعنايةِ بهذا المعنى والاهتمامِ به[4]، وتحتمل أن تكونَ الجملةُ داخلةً في حيِّزِ القولِ على الاستئنافِ[5]، وقد أكَّدَ النَّظْمُ الجليلُ جملةَ: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ باستعمالِ (إنَّ)؛ لِلاهتمامِ بالخَبَرِ، كَما هو ظاهِرٌ، وبِذَلِكَ يُستَعمَلُ حَرفُ (إنَّ) في مَقامِ التَّعليلِ، ويُغنِي غِناءَ الفاءِ[6].

تحقيقُ التَّوبةِ من شروطِ الاستجابةِ للدُّعاءِ

غَرضُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿تُبْتُ﴾:

استعملَ البيانُ القرآنيُّ الفعلَ الماضي ﴿تُبْتُ﴾ في قَوْلِه تعالى:

المبالغةُ في تحقُّقِ التَّوْبَةِ، وصِدْقِ وقوعِها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 34.
(2) أخرجه أبو داوود في سننه، برقم: (1538)، والحديث حسنٌ لغيره.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 34.
(4) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 431.
(5) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 431.
(6) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 26/ 180.

﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾، ولم يأتِ بالمضارعِ (أتوبُ)؛ للمبالغة في إثباتِ تحقُّقِ التَّوْبَةِ، وبيانِ صِدقِ صاحبِها، حتَّى وإن كانَ زَمَنُ وقوعِها لم يمضِ بَعْدُ، فالماضي هنا مستعملٌ في إنشاءِ التَّوبة، وصيغةُ الماضي قد تُستعملُ في الإنشاءِ، فهي مستعملةٌ في زمنِ الحالِ، مثلَ صِيَغِ العقود في قولهم: (بعتُ) و(زَوَّجتُ).

وَجْهُ حذفِ متعلِّقِ التَّوْبَةِ:

خصَّصَ البيانُ القرآنيُّ التَّوْبَةَ باللهِ تعالى في قولِه: ﴿إِلَيْكَ﴾؛ لبيانِ شِدَّةِ الخضوعِ، ومقدارِ التَّذلُّلِ لجنابه العظيم؛ تأكيدًا لصِدقِ التَّوبَةِ، ولذلك أضمر متعلِّق التَّوْبَة؛ لتَعُمَّ، وتستغرقَ صنوفها، فلَفْظُ التَّوْبَة يحتمل الإطلاقَ، وهو أنسبُ في مقامِ الاستغفار، وطلبِ الصَّفح والرِّضا.

عمومُ التَّوبة من كلِّ أنواعِ التَّقصيرِ والذُّنوب

دلالَةُ عطفِ ﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾:

عطفَ النَّظْمُ الجليلُ قولَه تعالى: ﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ على قولِه: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾، فتكون داخلةً في الاستئناف البيانيِّ، على أحد التَّوجيهين لجملة: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾، أو تكون داخلةً في حيِّزِ القولِ على الاستئنافِ الدّالِّ على أنَّ الكلامَ الَّذي بُنِيَ على القَطْعِ والاستئنافِ لهُ شأنٌ أيُّ شأنٍ في الغَرضِ المَسوقِ له الكلامُ، يعني: أنَّ جملة: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ وما عُطِفَ عليها، لها شأن أيُّ شأن في قصَّة ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾؛ لأنَّ هذه الوصيَّةَ هي الغَرضُ المسوقُ له الكلامُ، والتَّوبةُ إلى اللهِ والإنابةُ إليه والدُّخولُ في جماعةِ المسلمينَ، كلُّ ذلكَ هو القاعدةُ الَّتي دارَ عليها كلامُ الابنِ الصّالحِ البارِّ، من يوم أن بلغ أشُدَّهُ، وبلغ أربعينَ سنةً؛ لأنَّ كلَّ ضراعاته مُؤسَّسَةٌ على ذلك ومُستَشْفِعَةٌ به[1].

الدُّخولُ في جماعةِ المسلمينَ هو أساسُ البرِّ والتَّوبَةِ وكلِّ خيرٍ

(1) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 434.

نوعُ حرفِ ﴿مِنَ﴾ ودلالتُها:

الانتسابُ للمسلمين شرفٌ عظيمٌ يوجِبُ الاهتمامَ بأمرِهم

حرفُ ﴿مِنَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ للتَّبعيض؛ فأفادَت انضمامَ هذا الابنِ البارِّ والعبدِ الصّالحِ لجماعةِ المسلمين، فهو بعضُ أفرادِها، يتشرَّفُ بالانتماءِ إليها، ويفخرُ بها، ولم يقُل: (إنِّي تبتُ إليكَ، وأنا مسلمٌ)؛ لأنَّ إثباتَ كونِهِ جُزءًا من جماعة المسلمينَ أبلغُ في الدَّلالة من إسلامِهِ وحدَهُ، فهو يُشيرُ إلى وجودِ جماعةٍ متميِّزة بهذا الوصف، وهو جُزءٌ منها، حريصٌ على صالِحِها، بدليل برِّهِ بوالديْه، ودعائِهِ لذُرِّيَّتِه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفِصالُ والفِطامُ:

الفطامُ هو الانتهاءُ من الرَّضاعة باختيارٍ، والفِصالُ هو ما بعد الفطامِ

الفِصالُ: الفِطامُ، وفَصَلت المرأةُ ولَدَها، أي: فطمَتْه، وفَصَل المولودَ عَنِ الرَّضاعِ يَفْصِله فَصْلًا وفِصالًا وافتَصَلَه: فَطَمه، والاسْمُ الفِصال[1]، وفي الحَديث: «لا رَضاع بَعْدَ الفِصالِ»[2]، أي: بَعدَ أن يُفصَل الوَلَدُ عَن أُمِّه[3]، فالفِصالُ كالفَطْم والفِطام بناءً ومَعْنًى، وقيلَ: الفِصالُ بِمَعنى وقْتِ الفَصْلِ، أي: الفَطْم، والمُرادُ بالفِصالِ الرَّضاعُ التّامُّ المُنْتَهي بالفِطام؛ ولِذَلِكَ عَبَّرَ بالفِصالِ عَنهُ أو عَن وقتِهِ دونَ الرَّضاعِ المُطلَق، فَإنَّهُ لا يُفِيدُ ذَلِكَ[4]، وقيل: بل عبَّرَ عن الفِطام بالفِصالِ؛ لأنَّ بينَهُما مُجاورةً شديدةً، فجاز التَّعبيرُ عن أحدِهما بالآخرِ لأجلِ هذه المُجاورةِ، والقيمةُ المعنويَّةُ المُرادةُ: هي الإشارةُ إلى أنَّ هذا هوَ الأصلُ في الحَملِ والرَّضاعِ، وأنَّهُ إذا انتهتِ الثَّلاثونَ؛ فالأصلُ الفِصالُ[5].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (وضع).
(2) أخرجه عبد الرّزاق في مصنفه، برقم: (11450).
(3) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (وضع).
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 287.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 302.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والخمسون،
سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 55 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-659-89-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 55 : المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-659-89-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4299298 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"